
ستة أيام
رواية
حليم بركات
المركز الثقافي العربي

ستة أيام

* ستّة أيّام (رواية).
* تأليف: د. حليم بركات.
* الطبعة الثانية، 2000
* القياس: 14 × 21 سم.
* عدد الصفحات: 174.

* الناشر: المركز الثقافي العربي

العنوان:

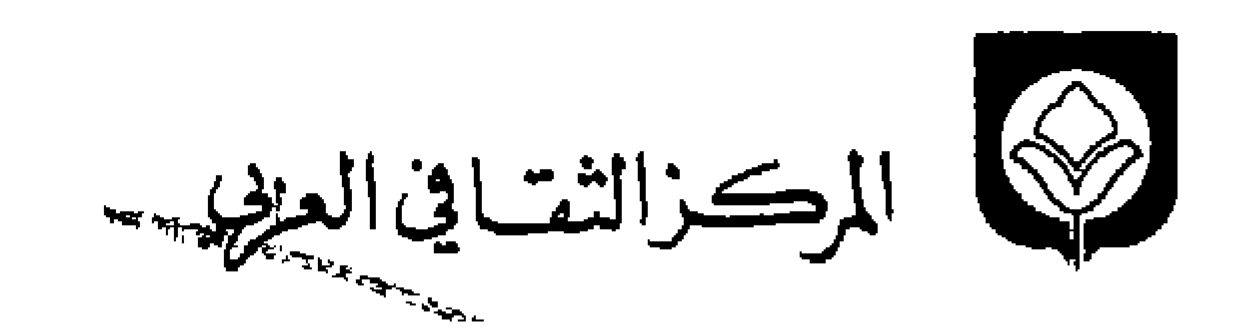
□ الدار البيضاء/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ بيروت/ الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.

ستة أيام

حليم بركات

رواية



هذه الرواية التي صدرت في طبعتها الأولى عن دار مجلّة شعر في العام 1961، كانت علامة مميّزة برأي عدد كبير من النقّاد الذين تناولوها آنذاك، فقد كانت سبّاقة في أسلوبها، وفي طرحها لموضوع هزيمة العرب في حربهم ضد العدو الإسرائيلي الذي حصل بعد ذلك بسنوات (عام 1967) وفي جرأتها على طرح أفكار جديدة تمسّ صميم مشاكل المجتمع العربي. فالرواية توجّه نقداً مبكراً لأساليب النضال آنذاك ولتقديس الأشخاص وللرهانات الفاشلة على قدرة الأنظمة العربيّة آنذاك على تحرير الأرض المحتلّة، كما للانقسامات الطائفيّة والمذهبيّة التي تنخر وحدة المجتمع العربي، ولتلك الصورة من البطولات التي تدفع ثمناً غالياً ولكنها لا تجني سوى الهزيمة.

وهي تقول ذلك بلغة مباشرة بسيطة وقويّة، بعيداً عن التفخيم اللغوي الذي كان يميز الكتابة العربية، فتعتمد الجملة القصيرة، وترسم صورة واقعية لم تكن هي الصورة السائدة آنذاك.

وقد قيل عنها عند صدورها:

«إنّ (ستّة أيّام) لحليم بركات، تقف. . . في الطليعة من حيث جودة الصياغة الفنيّة. والمزاوجة الواعية العميقة بين

أبعاد النكبة. . . حيث التقى الوجه الذاتي للمأساة بالوجه الشامل لما في واقعنا العربي من تناقضات. واستطاعت الرواية أن تحمل في تضاعيفها، إلى جانب الأزمة المحورية الرئيسية التي تدور حول أعماق النكبة الفلسطينية، الكثير من الأزمات الحضارية. . . كل هذا بأسلوب شعري شفاف، ومن خلال بناء فني محكم، استطاع الفنان من خلاله أن يهب الأحداث أعماقها، وأن يخرج بالتجربة من إطارها الذاتي إلى نطاق أكثر رحابة وشمولاً. . . وفي النهاية أحب أن أسجّل لحليم بركات مهارته التكنيكية الفائقة التي أعلنت عن نفسها خلال البناء الروائي المحكم الذي استخدم فيه الكاتب بمهارة وحساسية نادرتين كل الأدوات الفنية التي استعملها من مونولوج وحوار وتذكر واستعمال أكثر من ضمير ـ دفعة واحدة ـ في عملية القص الروائي. ولا أستطيع مع كل ذلك إلا أن أسجل دهشتي الشديدة لاكتشاف مثل هذه الرواية الناضجة شعراً وشفافية في أدبنا العربي».

صبري حافظ

«العبارة مقتضبة، مكهربة، والنبض عال لجوج فكأنه في سباق مع الثواني أو كأنه يخشى أن تمر به ثانية فلا ينتزع منها كل ما هي مشحونة به من أحداث وأسرار».

ميخائيل نعيمة

«إنّ حليم بركات واحد من روائيين عرب اكتشف الزمن كشخصية من شخصيات الرواية».

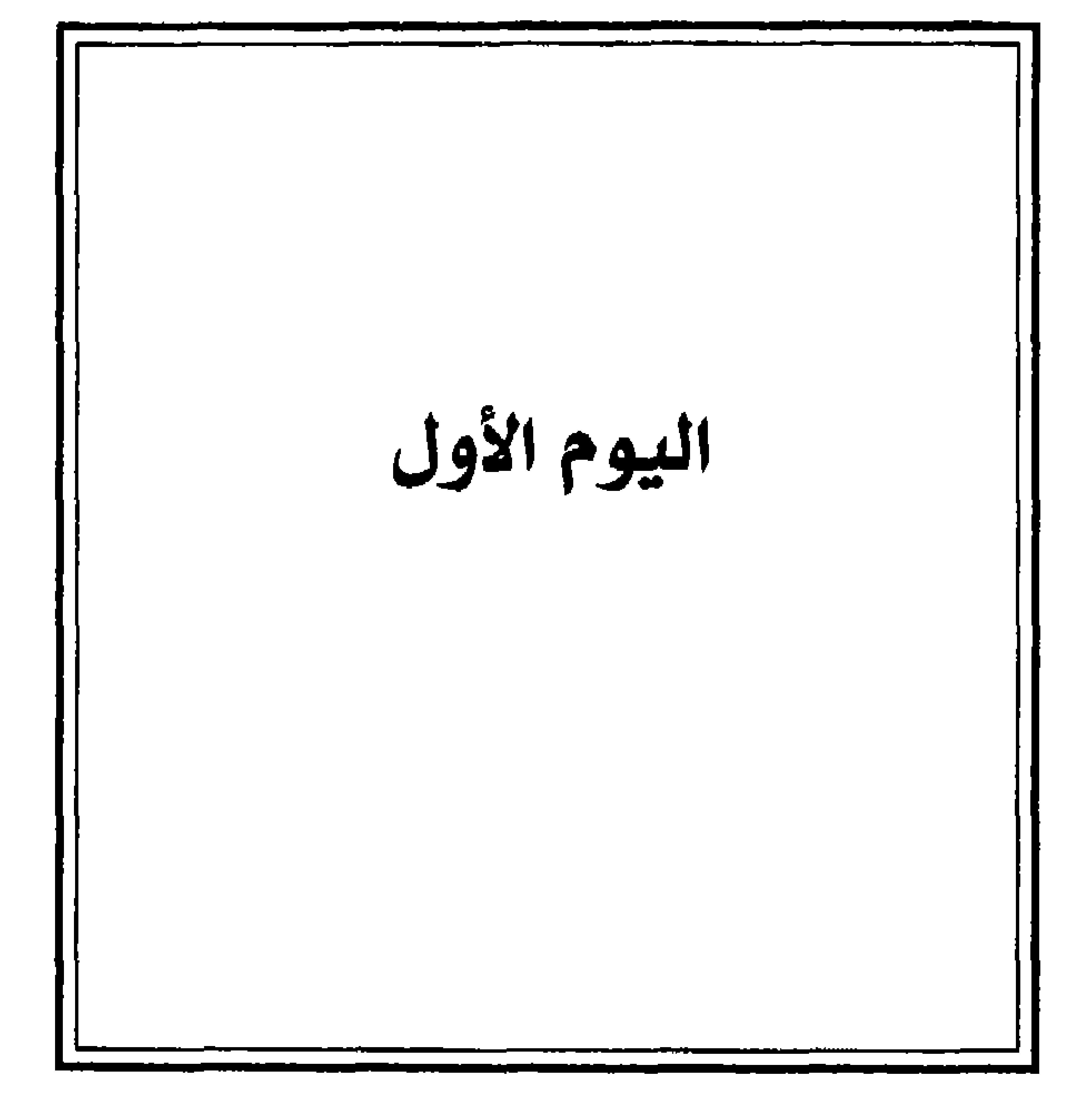
هاني الراهب

«إنّ حليم بركات في روايته «ستّة أيّام» يطرح قضيّة الانتماء في حياة هذا الجيل . . . فقد وضع شخصيته الرئيسية في أتون الأزمة، في قلب المحنة، في اللحظة الحاسمة من تاريخ المأساة».

غالي شكري

«ثلاثية حليم بركات «ستّة أيّام، عودة الطائر إلى البحر، الرحيل بين السهم والوتر) تتمحور حول الوعي، والبحث عن جذور الوعي في الواقع».

الياس خوري



اليوم الأول

- 1 -

أن تستسلم دير البحر أو تُمسح عن وجه الأرض.

يستند سهيل إلى جذع شجرة السنديان. الضباب المتكاثف يتصاعد ويحيط بدير البحر فيفصلها عن العالم. إنها سفينة من أرض كنعان تمخر البحر لأول مرة متحدية الموت الجحيمي عند أطراف الوجود. لا يريد أن ينفصل. لا يريد أن يذوب. لا يريد أن يضجر أو يستقر. الضباب يرتفع إليه.. يغمر جسده النحيل. السفينة تواجه الموت بلا دفة. رغم هذا تتحدى.

يرتفع الضباب إليه، يغمره. «إن أمة كبيرة ستهلك». كأنه عرّافة دلفي وقد أخذ دخان المذابح يغمرها. يمتزج بالأشياء، بالأشجار والتراب والضباب والحجارة: «الموت والرعب والتحدي نحن. أيتها الآلهة، غداً تمتلئ الأشياء الجامدة بحركة الحياة».

لسبب ما أحب سهيل أن ينفرد بنفسه. كان قد خرج من الاجتماع العام الذي عقدته دير البحر وهو مليء بالحماس. قرروا أن يصمدوا أمام إنذار الأعداء الرابضين على الحدود الجنوبية بعد أن احتلوا القسم الأكبر من البلاد. لن يتخلوا عن البلدة التي عاشوا مع ترابها وهوائها وظلال أشجارها ألوف السنين. على الأقل لا يريدون أن يخضعوا. في إنذار الأعداء نفي لوجودهم: أن تستسلم دير البحر بعد أسبوع وتعيش بآمان أو تُمسح مسحاً.

اليوم هو الاثنين. إنه اليوم الأول. يمكنهم أن يفكروا حتى نهار الأحد. ولقد بدأوا يفكرون منذ الآن. قال هو في الاجتماع العام: السؤال هو أن نستسلم أو نموت. والجواب بسيط جداً: أن نموت أو ننتصر.

تعالى التصفيق الحاد وخرج أهل البلدة يطوفون في الشوارع منشدين. عقربا الساعة الكبيرة في وسط دير البحر لا يتحركان. توقفا منذ زمن بعيد. يواجه تمثال الشهيد ابراهيم العامري. ناهدة. ويسير في الشارع العام. اعجبته كلمة فريد في الاجتماع. عبد الجليل ألهب حماسهم. المظاهرات تغلي في شرايين البلدة. اندفع مع تيار المتظاهرين الجارف. سأله رجل إلى أين يندفعون فأجاب لا أدري. وجد نفسه يقول لا أدري فتوقف. دائماً يريد أن يعرف إلى أين. انسلّ من بين الجماهير. ترك الصراخ وراءه وسار نحو السنديانة الكبيرة في طرف البلدة الشمالي وأطل على شاطئ البحر. الميناء راكد تحته. السواري ترتفع في وجه السماء. الشِّباك تتمدد في وجه الشمس. المجاذيف تضرب وجه البحر المتوسط. البيوت القرميدية المتلاصقة المغبرة تتصل بالميناء. تلف ذراعيها حولها. الأزقة المزدحمة بالمحلات التجارية لا تُرى. حتى الطريق العام الذي يخترق دير البحر من الشرق إلى الغرب لا يُرى. يلاحق البلدة النائمة بانحناء على التلة، المنبطحة بتكاسل على الشاطئ. لم يعد يتساءل لماذا تتجمع دير البحر على نفسها فلا تتمدد على هذه التلة التي يقف عليها الآن أو على الشاطئ أمامه. نسي أيضاً أن يجيب نفسه بأن للبلد تاريخاً مع الخوف. خوف في الداخل وخوف في الخارج. قبل هذا الإنذار كان الحي الغربي والحي الشرقي في خلاف دائم. لقد اتحدوا الآن في وجه الأعداء. قد يكون هذا

الإنذار بداية حياة جديدة. قد يكون نهاية أبدية. لا نهاية أبدية. دير البحر فسيفساء. ماذا يشده إليها؟ ماذا يشده إلى الخوف والجهل والفقر والتناحر والفوضى والتكالب؟ أيتها البلدة الموزّعة. المرأة التي تلبس البنطلون تقف إلى جانب المرأة المتحجبة بعباءة سوداء سميكة. الواحدة منهما تتجاهل الأخرى، تنفصل عنها. فسيفساء. السجن يقوم بين بيت الله والمدرسة. لمياء تكره أن يقال إنها من دير البحر فتحبس نفسها في البيت تصغي لفاغنر وشوبان وارمسترونغ منتظرة الفرج عندما يموت والدها فترثه وتتحرر من استبداده. أما جارها فريد فيحس أن كل نقطة من دمه هي لدير البحر فتهدر في وجوده عاصفة من المحبة لترابها والبغض لأعدائها. لمياء لا تعرف فريد. فسيفساء. أيتها البلدة الموزّعة. هو نفسه يعيش في عائلة متنافرة. يصرف أمواله على الموسيقى والكتب والنساء. بل صرفها، بينما يكدسها عمه في مكان مجهول، ويأكل ويشرب وينام حافياً من أجلها. عمه الآخر نذر نفسه لله. هو نذر نفسه لا يدري لأي شيء. يغترب أحياناً، يحس أن الحياة رائعة. يكفي أن يكون فيها موسيقى وكتاب وامرأة ونقاش. فسيفساء. خليط غريب من البشر يحيط به. رغم هذا يشعر احياناً أنه يحبهم حتى ليود أن يعطيهم شيئاً يوحّد بينهم ويجعلهم كائناً حياً. صدره يمتلئ برائحة العرق والعطر، بالمحبة والأنانية، باليأس والأمل، بالهرب والتحدي، بالموت والحياة. خيط غريب يفصل بينها. لا يقدر أن يأمل أو ييأس. لا يقدر أن يضجر أو يستقر. إنه في تمزق ابدي.

تراهم تسرعوا في قرارهم؟ توصلوا إليه دون نقاش؟ كيف يواجهون الأعداء؟ بالبندقية العتيقة والمسدس والخنجر والوهم الخرافي في الرؤوس والساعة المتوقفة عن المسير؟ إنهم يتكلون

على جيش الدولة الشقيقة، في الواقع. ولكنه قال بحماس في خطابه: «لهذه البلدة تاريخ مع البطولة. في طبيعة دير البحر ما يدفعها للبطولة. وراءها قمة صخرية ترتفع عالياً. وأمامها البحر المتوسط الصاخب الممتد بعيداً داخل العالم. أينما تطلّع الإنسان هنا يشعر بأن شيئاً ما يتحداه. يحثه أن يستجيب للتحدي. من احتفالات أبناء دير البحر قديماً أن يتنافسوا في التسلق إلى رأس القمة الصخرية ويتحدّوا صعابها. البحر أيضاً يتحدانا. يمتد أمامنا في المجهول. طالما أراد جدودنا أن يخوضوه. كان من عادة الأطفال أن يتنافسوا في الوصول إلى الجزيرة. في وجودنا ما يدعو للتحدي فلن نتخاذل. أهل دير البحر نشأوا مع المخاطر فاعتادوها وأحبوها حتى ليصعب عليهم أن يفصلوا وجودهم عنها. لقد تناوبت أمواج العدوان على هذه البلدة وتركت فيها انحطاطها. نريد أن نوقف هذه الموجات. نريد أن نتحدى. لم يعد لنا غير الموت. إنه نعمتنا الأخيرة. إنه السفينة التي تمخر ضمير الأجيال الآتية. قد لا ننتصر في هذه المعركة ولكننا نترك لأبنائنا أسطورة، أسطورة التحدي والبطولة والاستشهاد، فيرتفعون بوجودهم نحوها. هم لا بد أن ينتصروا».

أحقاً قصد ما قال؟ لماذا لم يقل لهم إنهم تجار وجهلة وبدائيون ومنحطون وفارغون وعبيد؟ قال ما يُحب الجمهور أن يسمع. هذا كل شيء، ولكنه لن يهرب. يواجه المشكلة لأنه يريد الخلاص من الضجر. إنها تجربة جديدة ربما تغيّر حياته. أشيء جديد ما يمر في حياته الآن؟ لا يريد أن يجيب. ماذا يفعل؟ ليذهب إلى بيت الشهيد إبراهيم العامري حيث يجد فريد وسائر المجاهدين يتدربون. تراه يريد أن يتدرب أو أن يرى ناهدة؟

وابتسم. ليظل قرب السنديانة. من زمان لم يتفلّت من تيار الناس وينفرد بنفسه فيتأمل كل ما فعل وقال. في مثل هذه الأوقات الحرجة يستسلم الفرد لتيار الجماعة. يجب أن يكون له دائماً اقتناعه الخاص فيفعل ويقول ما يعتقده حقاً لا ما يرضي الآخرين.

وتنشق الهواء الربيعي النقي البارد. تذكر شوارع المدن المحمومة المزدحمة التي عاش فيها لمدة طويلة. عاد إلى بلدته منذ سنة هرباً من الضجر. بل لأنه أفلس. على هذه التلة هدوء لم يعرفه منذ الطفولة. كان طيلة السنوات الخمس الأخيرة مربوطاً إلى المدينة، إلى الشوارع والباعة والحمالين والمقاهي والنوادي والأجساد التي لا عروق فيها. المدن الكبرى المعقدة خلقت منه إنساناً ضجراً يحن إلى الاستقرار دون أن يريده. في دير البحر لم يعرف الاستقرار أيضاً. تلهى بالتعليم في المدرسة. الضجر ظل يسكن وجوده. في هذا الأسبوع لن يضجر. لقد قرر مع سكان دير البحر ألا يتخلوا عن حياتهم هنا. إن أحداً لن يهرب. إما الموت أو الحياة. إنه قرار خطير. من زمان والإنسان في بلاده لم يواجه شيئاً خطيراً. لذلك تقلّص. استسلم للخرافة.

وتنشق الهواء الربيعي البارد. رائحة الليمون ترتفع من البساتين. يا أرض كنعان. كان يقول دائماً إنه لا يهتم بالطبيعة. كل ما يهمه الإنسان الغريب المعقد. العواطف الإنسانية المتشابكة المتناقضة والأفكار العميقة هي أغنى ما في الوجود. كان يتحدث عن الأفكار والعواطف قبل الآن. في هذا الأسبوع سيعيشها في أروع أعماقها. لن يراقب عواطف الناس ويقرأ الكتب. سيعيش تجربة الموت والبطولة والتحدي فتفور الحياة في وجوده بعنف. سينسى الضجر والالتصاق بجسد امرأة بارد، والمتجرجرين في الشوارع السوداء

كخطوط حديدية. لماذا تعود هذه الصور إلى مخيلته؟

ويستند إلى جذع شجرة السنديان. الضباب المتكاثف يتصاعد ويحيط بدير البحر فيفصلها عن العالم، عن الصنوبر والسنديان وجنائن الليمون. القرميد الأحمر يمتزج بالضباب الرمادي. إنها سفينة من أرض كنعان تمخر البحر لأول مرة متحدية الموت الجحيمي عند أطراف الوجود. جلياد الجبار تقيَّدتَ بشرف قانون الصراع، ولم يتقيد الراعي فغدر بك. صفقوا له. الناس لا يزالون يصفقون للغدر. يؤلهونه. لا يريد أن يصفق. لا يريد أن ينفصل. لا يريد أن يذوب. لا يريد أن يضجر أو يستقر. الضباب يرتفع إليه. السفينة تواجه الموت بلا دفة. رغم هذا تتحدى.

يرتفع الضباب إليه. يغمره. «إن أمة كبيرة ستهلك». كأنه عرّافة دلفي وقد أخذ دخان الذبائح يغمرها، يمتزج بالأشياء، بالأشجار والتراب والضباب والحجارة:

«الموت والرعب والتحدي نحن أيتها الآلهة. غداً تمتلئ الأشياء الجامدة بحركة الحياة. عروق التين ستبرعم. والزلازل ستكتسح الأرض هي والطوفان... يتلاشيان مع نوح ويبقى الإنسان يحمل وجوده في ضميره إلى الأبد. يا مأساة البقاء. أيها الموت إمنحنا نعمتك. يا نعمة الموت اهبطي علينا. الهولندي الطائر مات إذ وجد من تفتديه بوجودها. دير البحر ستحيا حين وجدت من يفتديها بوجوده. الهولندي الطائر مات وبقينا نطوف بحار العالم في وجه الشمس والموج والضجر، ونصفق للغدر. تحدّينا نسرٌ في ذرى بعلبك. يا نعمة الموت... يا نعمة الحياة اهبطي علينا. الثور البري يهاجم الطفولة والمكتبات الطينية. وجلقامش يملأ وجوده بسر الحياة ونعمة التحدي والموت. يا سهام تموز توتري. الخنزير

الوحشي يقترب. لا يرابض على حدودنا. إنه في دمنا. نحارب في داخلنا. يا عواصف فاغنر اهبطي واحمليـنا فوق الأمواج كشراع يتطلع بكبرياء إلى آفاق صدره».

وعاد إلى نفسه. إنفصل رويداً رويداً عن التراب والحجارة وشجرة السنديان. موجة الضباب التي غمرته كدخان الحرائق الإلهية في معبد دلفي بدأت تتلاشى. إنه ينفصل عن الأشياء. عن الأشجار والتراب والبحر والضباب والحجارة. إنه هنا. قرب شجرة السنديان. عاد العالم ينوجد. لو تعاوده فترة الوهم. ويغمض عينيه من جديد. كأنه ينفصل. لا ينفصل. وتبرق السماء. تواجهه الغيوم السوداء. نقاط المطر الربيعي تتساقط هنا. . هناك. لو كان كالمطر لا يستطيع إلا أن يتساقط. صدره مسرح. الموت. الحب. التراب. الآخرون. التحدي. قنبلة تنفجر. ذراع يمتزج بالحجارة والغبار. نخاع رجل يلتصق بالحائط الأبيض. لماذا أحبها؟ لينسى الضجر. لماذا يواجه الموت؟ لينسى الضجر. لماذا يتحدى؟ لينسى الضجر. ما قاله عن نعمة الموت لم يكن يقصده. يريد أن يعبر الضجر فقط.

يتأمل المطر الربيعي المتساقط على مهل. يداه تغرقان في جيبتيّ بنطلونه. تتكوران. ويمتد صدره متنشقاً الهواء النقي البارد. صدره يرتفع. يهبط ويمتد إلى الأمام كأنه يود لو يلتصق بالمطر وأغصان الشجر والتراب المبلل والصخور عند الموج. لو يغمر كل شيء. لو يتلاشى في كل شيء. يفتح كفيه للمطر. عيناه تنفتحان للمطر. العالم بحر رمادي. شفتاها تقتربان من شفتيه. ويغمره الهواء إلى صدره. يقبل أطراف أصابعه. لا شيء. وهم.

وأحس بانتفاضة جميلة. لماذا لا يذهب إليها الآن؟ ليصارحها بحبه. قد يموت في هذا الأسبوع. قد تموت هي. ليطلق العصفور من قفص صدره فوق البحر، في المطر والضباب.

ـ 2 ـ

كانت ناهدة تنتظره تحت شجرة الصنوبر قرب سور بيتهم في طرف البلدة الشمالي متشاغلة بالقراءة. اقترب منها بعد أن ألقى تحية عابرة على عامر وخالد وفؤاد وعبد الجليل وهم يتدربون على استعمال البندقية. قال لها: مرحبا.

ـ مرحبا.

انتظر أن تسير معه نحو الشرفة كالعادة، غير أنها ظلت في مكانها تحدق بالتراب. يحدق هو بجسدها الناعم النحيل. تريد أن تقول شيئاً. هو أيضاً يريد أن يقول شيئاً. تطلعت إلى البحر. ليطلق العصفور من قفص صدره. لا. يفضل أن يصارحها في موقف غير هذا. لا يريد أن يطلق العصفور في الصحراء. نظر إليها. إنها تتململ. لا شك أن لديها ما تقول. أرادها أن تتكلم فسأل: هل دعوتني إلى الشرفة؟

ـ آسفة.

وضحك باستغراب ولكنه سيطر على انفعاله فقد ظنها تهزل. وأراد أن يستمر في المزاج فقال: إذن، أنا أدعوك.

أدارت ظهرها، تماماً كما أدار ظهره قبل امس للمياء: عندي حفلة.

ـ مشغول.

لماذا يفكر بلمياء؟ يدا ناهدة ترتفعان إلى وجهها. تمنى لو يضمها إلى صدره بلهفة، لكن الشباب يراقبونهما. يريد أن يصارحها هي، لا أن يعلن شيئاً خطيراً تمتلىء به دير البحر في برهة. فكَّر أن يحدثها عن أي شيء ولكنه سمع صوتها: آسفة. يمكنك أن تذهب الآن.

وتطلع إليها بعجب. إنه لا يصدق. تتغير ملامحها: سهيل، ارجوك.

ـ لا افهم.

ـ أمي لا تريدك تأتي إلى بيتنا بعد الآن.

ـ غريب. كل إنسان في هذه البلدة يأتي إلى هنا فيجد الأبواب مفتوحة.

ـ يأتي بخشوع.

ـ لا أفهم أيضاً.

ـ أرجوك، سهيل. أمي لا تريدك أن تأتي إلى بيتنا.

ـ اعتقد أن من حقي أن اعرف السبب.

ـ لا أدري. هكذا قالت لي. That is all

ـ أذن سأسألها بنفسي.

واتجه نحو الباب الرئيسي بحنق. غير أن ناهدة دعته بترجّ: سهيل، سهيل. please

ـ ماذا؟

وتوقف في مكانه. تطلع إلى الشباب. عاد ينظر إليها بحيرة

وخجل. ألوان تتماوج في وجهها الطفل: من حقي أن أعرف السبب.

ـ قرأتْ مذكراتي.

ـ قرأتْ مذكراتك؟ وأنا. . .

كان على وشك أن يقول «وأنا ما شأني» غير أنه توقف. إنها تصارحه بحبها. قبله أطلقت العصفور من صدرها. الألوان تصخب في وجهها. عيناها تحدقان بالتراب. ترى يراقبهما الشباب؟ اقترب منها. ود لو يأخذها بين ذراعيه: ناهدة.

ورفعت عينيها إلى عينيه وهو يتابع: أنتِ تعرفين ما هو شعوري نحوك. لا شيء في العالم يمكن أن يغيّره.

وأدار ظهره. مشى. سمعها تقول «وأنا أيضاً». ابتعد. لا يذكر أنه رأى الشباب يحدقون به. أو أنه عبر الممر الترابي. «أمي لا تريدك أن تأتي إلى بيتنا بعد الآن». إنها في خجل وحيرة. ألوان تتموج في وجهها الطفل. «قرأتْ مذكراتي.» ترى ماذا كتبت في مذكراتها؟ إنها تحبه، هذا كل ما يهمه. كلمة حب تكفي. كيف لم يدرك أنها تحبه بهذا العنف من قبل؟ بلى. بلى. لقد أدرك، وإلا ما معنى تلك اللهفة للقائها دائماً؟ «قرأتْ مذكراتي؟» ماذا كتبت؟ «ناهدة. أنتِ تعرفين ما هو شعوري نحوك». «وأنا أيضاً».

انتهت لمياء، إذن؟ لماذا خطرت في باله الآن؟ إنتهت من زمان، وإلا لما كان استجاب إلى ناهدة بمثل هذه اللهفة. في الواقع إنها لم تبتدئ. هل فشل في أن يسيطر عليها فالتجأ إلى امرأة أخرى تنظر إليه بخضوع؟ ما به؟ ما به عاد يتساءل؟ لا يستطيع إلا أن يتساءل. ترى يقود فتاة ثانية إلى نهايتها؟

وارتطمت قدمه بإحدى بلاطات الزقاق الضيق فعاد إلى نفسه. لا يذكر أنه انعطف نحو هذا الزقاق العفن. وتساءل لماذا تتراكم هذه البيوت على نفسها فتحجب نور الشمس. يخافون. شعب سلحفاتي. هذه التلال الجميلة لماذا لم ينفردوا حولها ويفتحوا صدورهم للشمس والمطر؟ أما كان مخطئاً عندما قال في خطابه إن تحدي المخاطر جزء من وجودهم؟ في الواقع إن الخرافة فقط جزء من وجودهم. تراهم يصمدون حتى يوم المعركة؟ من أجل ماذا يموتون؟ كل همهم أن يعيشوا، أن يتوالدوا، أن يستمروا. مثل النمل والذباب. من أجل ماذا يموتون؟ الأسوار حول البيوت تحجبهم عن الحياة. بيتها هي مسوَّر أيضاً. الأعداء جائعون في أعماقهم لأن يحتلوا هذه البلاد.

والتفت إلى الوراء. لقد اختفى بيتها وراء سقف قرميدي أجرد. لماذا لم يطلب منها موعداً؟ كل دقيقة تمر لها ثمن. في هذا الأسبوع لن يعرف الضجر. غريب أن يواجه الحب والموت معاً. قد يموت غداً. . بعد غد. الآن. تنفجر قنبلة موقوتة. يتساقط البيت عليه. بعد أسبوع قد لا يبقى إنسان في هذه البلدة. يموت عشرة الآف شخص في أسبوع. يغسل الدمُ العَفَنَ في الشوارع الضيقة. لماذا يموت؟ من أجل ماذا؟ الناس هنا ماتوا من قرون. ربما حان وقت الدفن. لماذا يؤخر الدفن؟ ما به؟ ما هذا التشاؤم؟ تراه بدأ يغيّر رأيه عندما بدأ يجد وسيلة أخرى يهرب فيها من الضجر؟ ظن أن الحب يبلور إنسانيته. أنه يرسخ أنانيته. متى بدأت تحبه؟ لو يقرأ مذكراتها.

عبر الساحة العامة. عقربا الساعة الكبيرة لا يتحركان. تمثال أبيها يتطلع إليه. . يحدجه بنظرة يخاف منها. يحوّل نظره إلى بيت

لمياء، ثم يدخل الزقاق إلى الحي الجنوبي. أبصر أخ فريد. يتبعه بعض الأولاد ضاحكين. تأمل ثوبه العسكري وحذاءه الضخم والبندقية الخشبية فوق الغطاء الصوفي الرمادي والمصباح الكهربائي المتدلي من حزامه. منذ نُسف بيتهم القديم وماتت أمه وأخته وقطعت رجل أبيه هو يتخيل نفسه جندياً يبحث عن الأعداء. اقترب منه ولد وجذب بندقيته الخشبية وهرب فارتفعت ضحكاتهم. تظل الابتسامة تملأ وجهه. الأولاد يحيطون به. اقترب أحدهم. طلب منه أن يبطش بالعدو فراح يعرض جسده النحيل ويصوّب بندقيته الخشبية. أشار له أن يقف على مرتفع صغير، فوقف. قال له أن يخطب بالناس، فراح يقول: «أيها الجمهور الكريم. أهلاً بكم». وسكت. رماه أحدهم بحصاة صغيرة فراح يفرك عينه اليمنى. اقترب آخر ولكن سهيل صرخ به فتراجع.

فكّر أن يوصله إلى البيت فيرى فريد ويتحدثان. الألوان تتماوج في وجه ناهدة. البندقية الخشبية نحن.

ـ 3 ـ

لم يجد فريد في البيت فعاد في الطريق الضيق إلى حيث يتدربون. في عودته تأمل الذباب والغبار والحمالين وباعة الليمون والحلويات والأغنام والمستنقعات والحمار الأجرب في وسط الساحة. ملأه النفور ولكنه فكر أن يتقن استعمال البندقية. وعادت إلى رأسه صورة المرأة التي كانت تجلس على إحدى درجات سلم بيت فريد، فلما رأته غطت وجهها واندفعت إلى الداخل. كادت تسقط. لماذا تهرب من جسدها؟ يحاول أن يموت من أجل الهاربين. لماذا؟ فريد يجيب بأن مثل هذا الوضع يضاعف مسؤوليته. فبقدر ما تسوء حالة البلاد بقدر ما يجب أن يعمل. لا يستطيع أن يكون متحمساً مثله. لا يستطيع أن يكون مثله مؤمناً متعصباً حماسياً مصمماً عنيفاً اجتماعياً. كل ما يهمه أن يبحث عن الحقيقة. بمحبة وشك. لا شيء يجمعهما غير محبة الجدل وصداقتهما منذ الطفولة. وربما يجمعهما الصدق؟ ومن قال له إنه صادق؟

وتسلق التلة فعاد يشرف على بيتها. ينحدر إلى حيث يتدربون. كل شيء يبدو واجماً. يحب أن يصرخ. اقترب منهم فقال فريد «أهلاً وسهلاً» واستمر في إعطاء إرشاداته لخالد ورياض وعامر وفؤاد ونايف، كأنه ما زال في الجيش: «الثانية.. الثانية الواحدة لها معنى

في المعركة. قد تكون الفاصل بين الموت والحياة. موت واحد قد يسبب اندحار فرقة بكاملها».

وتركهم بعد أن أشار إلى سهيل أن يسير معه. حافظ فريد على رصانته فيما هو يوجه الكلام إليه: أنتَ مكلف من قبل رئيس البلدية بالاتصال مع رئيس أركان جيش الدولة الشقيقة. أنتَ وعبد الجليل. مفهوم؟

ـ لماذا أنا؟

ـ سؤال غير وارد.

ـ أمرك سيدي.

وضحك فريد، ولكنه عاد يقول برصانة: تعال وتدرب على البندقية بعد الظهر.

ـ أمرك سيدي. نتمشى معاً الآن، آه؟

ـ نتمشى.

وتسلقا التلة. بدا بيتها. فكر أن يراها الآن فقال: أراك بعد الظهر. نسيت، عندي شغل.

ـ شغل؟

ـ نتحدث بعد الظهر.

واتجه نحو بيتها. يريد أن يراها اليوم. قد لا يراها غداً. شيء مرعب. ضحك. لماذا لا ينفرد بها؟ ليذهبا في زورق إلى قلب البحر. لا يمكن. لا يجوز أن تنفضح علاقتهما. هو من دين وهي من دين آخر. ولكنه غير مؤمن. الناس لا يرونه إلا من ضمن قالب. ليسوا قادرين على النظر إليه من غير هذه الزاوية. شيء آخر. أبوها أصبح رمزاً في دير البحر. استشهد في المعركة. إنه رمز

مقدس، وناهدة في نظرهم تجسيد لهذا الرمز. لا يستطيع أن يدنّس الرمز. الحب دنسٌ هنا. لماذا أحبها؟ نسي أنه بحاجة إلى امرأة تملك حريتها. دائماً يميل إلى التطرف. يريد أن يتحدى. في بداية السنة أحب ابنة ضابط من ضباط الأعداء. لا يدري لماذا أحبها. المهم أن علاقتهما قد انتهت، فعاد يلتجئ إلى لمياء. إنه الآن يتجه إلى الطرف الآخر فيحب ابنة زعيم يقدّسه الناس. عليها أن تكون ما يريده الآخرون والآخرون يريدونها أن تكون غير ما يستطيعون هم أنفسهم أن يكونوه. ثم إنها من دين آخر. بلا حرية. لماذا أحبها؟ لماذا لا ينسحب؟ توقف. قضم أصابعه. ألم يقل أن شيئاً لا يمكن أن يغيّر شعوره؟

مرّ بيده على شعره وعنقه وانحدر نحو بيتها. ليأخذها في الزورق وليحدثْ ما يحدث. يذهبان بعيداً يجلسان في ظل الشراع. يقبلها بعنف. يغرقان. يكتشف عالمها الذي لم يعرفه إنسان آخر من قبل. الإنسان الأول في حياتها. يداها تنحبكان حول عنقه. لن يتحدثا عن موزارت وفاغنر ودير البحر. سيصغي لموسيقى جسدها فقط.

انحدر على مهل. اتجه إلى الشمال وأطل من وراء السور. ليست هنا. كرسيها هناك. كتابها منبطح على الكرسي. ربما. ورآها فجأة تدنو منه. انتظر أن تلتفت حولها فتراه ولكنها لم تفعل. تناول حصاة صغيرة ورماها بها. رفعت رأسها عن الكتاب قليلاً ثم عادت تقرأ. رمى حصاة أخرى فرآها تُفاجأ عندما وقع بصرها عليه. ترتبك. أومأ لها أن تتبعه وانحدر نحو الصنوبرات. العالم مثل غيمة في الريح. وجوده يلتهب. مدّد يديه وتنفس بحرية. العالم في حركة غريبة. الأشجار والبيوت وأعمدة الكهرباء تنخطف بسرعة نحوه.

وتبتعد فجأة. تذكر اللوحة التي شاهدها في معرض فنان شاب في لندن. تلك خطفته وسيطرت عليه. فيها رؤية جديدة للأشكال والألوان تجعلها تبدو كأنها في حركة خاطفة. يبتعد عن دير البحر إلى الشمال. أيتها الطيور الشمالية.

ووقع نظره على شبه مغارة صغيرة فأعارها انتباهه لأول مرة. الدم يجري حاراً في عروقه. اللهب في عينيه. يقف في ظل شجرة. لماذا هرب إلى الظل؟ يقف أمام الشمس. يلتفت إلى الوراء. إنها قادمة. وتدفّق الدم أكثر حرارة. يراقبها بدقة. لماذا تبدو صغيرة؟ إنها في الثامنة عشرة من عمرها. سبع سنوات تفصل بين ميلاده وميلادها. يقترب جسدها. كلما اقتربت أحس إنها تنضج. ترفع رأسها إليه مبتسمة بهدوء حزين. وجهها غيمة. يحب هذا الخجل. يضع يده في جيبه، ينزعها، يعيدها إلى جيبه، ينزعها ويمر بها على شعره وعنقه. تحدق في التراب. ترفع رأسها إليه فيقول: مرحباً.

ـ مرحباً.

التفت إلى الوراء بخوف. لا أحد يراهما. تبتسم. راقب الألوان المضطربة في وجهها دون أن يدري ما يقول. ليأخذها نحو المغارة. الدم الحار يسري في عروقه. فرصة لن يخسرها. قد تضطر أن تعود إلى البيت سريعاً. يكفيه تلك الفرص العديدة التي أضاعها. ملَّ مداعبة أصابعها. لا شيء يحطم الجدران بينهما سوى القبلة. وتناول يدها. تحدق بالتراب بينما يحدّق بوجهها. ألوان وجهها تبعث في دمه نشوة غريبة. يقترب من المغارة. يحاذيها. أراد أن ينعطف نحوها ولكنه وجد نفسه يكمل سيره في ظل الأشجار. لماذا؟ لماذا يلتجئ إلى الظل؟ لا يدري. إنها مأخوذة كفاية. شد على يدها. جسده يقترب من جسدها. يجذبها نحو نور الشمس. الربيع ينمو

في جسديهما. وتوقف فجأة. حدق بالظل الغريب الذي ترامى عليهما. إنه ظل امرأة. ورفع نظره إلى فوق. أمها. أمها. لم يندهش. وجهها مليء بالغضب. تحاول ناهدة أن تسحب يدها من يده ولكنه يضغط عليها بشدة: لا تقولي شيئاً. أتركيني أتكلم.

وأعجبه أنه استطاع السيطرة على أعصابه فظل ممسكاً بيدها. لا يجوز أن يتهرب من الحقيقة. وسمعها تأمر ابنتها: اطلعي بسرعة.

وساعدها في تسلق المنحدر الصغير. وقفا قرب الأم. لم يترك يدها. رفع عينيه إليها. وجهها ما زال مليئاً بالغضب. يحول نظرة إلى ناهدة. يترك يدها ويقول: تسمحين؟

رآها تتردد.. ثم تبتعد. التفت إلى امها. حدّق في وجهها الممتقع وشفتيها المرتجفتين وكفيها الضاغطتين على نفسيهما. لم يقل شيئاً. فكّر أن يتركها تتكلم. لتتكلمْ بقدر ما تريد فتفجر ما في عروقها من غضب.. وتهدأ. الدخان يغمر فوهة البركان. عند ذاك فقط يستطيع أن يقترب.. يقول ما يريد. وازدادت ثقته بنفسه. يعرف كيف يقترب منها. سيتصرف وكأنه لم يرتكب أي خطأ. ماذا فعل؟ كل ما في الأمر أنه يحب. ما الخطأ في أنه يحب؟ ولكن..

وسمعها تقول بانفعال وهدوء وترجّ لم يكن ينتظره: أستاذ سهيل، هل تريد أن تفضحنا؟ لماذا يا ابني؟ هل تنتظر مني أن أسمح لك بذلك؟ هل تسمح لنفسك؟ هل تسمح لأ..

وترددت، فقد تنبهت أن لا أخت له: لو كان لك أخت هل تسمح لها؟

وجد نفسه يحاول أن يقول شيئاً. «هذه العقلية». وضبط نفسه. يريدها أن تتحدث فقط. هذا السؤال العادي يمقته. كان على وشك

أن يقول «قد لا أسمح لها، ولكن هذا لا يعني أنني على حق. نادرا ما يفهم الأهل أبناءهم. ينفعلون فقط. ينفعلون. كما انفعل آباؤهم». تركها تتكلم ريثما تهدأ فتتلاشى تلك الحلقات الزرقاء في وجهها الشاحب: هل تسمح لنفسك؟ إذا عدت إلى ضميرك، أنا متأكدة أنك لن تفعل. أعرف أنك من خيرة الشباب.. وأحترم ثقافتك العالية. ولكن هناك حقيقة لا يجوز أن تغيب عن بالك. البنت ليست مستعدة للزواج بعد. يجب أن تكمل دراستها. ثم يجب أن تعرف أنك في دير البحر.

هنا أيضاً ودّ لو يقاطعها «أهذا هو السبب الحقيقي؟ لم أختر ديني. لماذا لا تتكلمين بصراحة؟» ولكنه استمر في إصغائه: أستاذ سهيل، الفتاة في مثل هذا العمر لا تحب حباً حقيقياً. إنها تحب الحب نفسه. تسمع رفيقاتها يتكلمن عنه، وتقرأ القصص أو تشاهد الأفلام فيبدو لها الحب لغزاً جميلاً، فتظن أنها يجب أن تحب. لذلك تتعلق بأول ابتسامة، بأول يد تلامسها. في مثل هذا العمر بإمكانها أن تحب أي رجل تعاشره كما عاشرتك. هل ترضى أن تكون أي رجل؟

ويبدو أنها أعجبت بفكرتها هذه فعادت تكررها «إنها لا تحب حباً حقيقياً. الحب فهم ووعي. إنها تحب الحب نفسه». فكّر أنه لم يعد لديها ما تقول، ولكنه تريث قليلاً. طال سكوتها. تريده أن يتكلم. حدّق بأصابعه التي لم تزل ترتجف رغم الهدوء وسأل: هل تسمحين أن أعطي رأيي؟

ـ أكيد. هذا ما أريده.

سأحاول أن أقول ما أريد باختصار وصدق.

تنفس بعمق وقال: أعجبتني آراؤك. خفت أن تواجهي الأشياء بغضب.

وابتسمت لتقول: يعود الفضل إلى تصرفك. عندما بقيت ممسكاً بيدها أحسست أنك صادق وشجاع. فكَّرت أنك ستفهم ما أريد وتساعدني على حل المشكلة فتترك البنت وشأنها.

صدمته عبارتها بعد أن بدأت تملأه بالفرح. ولكنه حافظ على هدوئه فيما هو يكمل: لي ثلاث نقاط اريد أن أوضحها. أولاً، أحب ناهدة وناهدة تحبني. ثانياً، ناهدة لا تحب الحب نفسه. بين الفتيات الكثيرات اللواتي عرفتهنّ لم أجد من هي بذكائها وثقافتها وترددها في الإجابة على أي سؤال.

ـ إنك. .

ـ أرجوك، اسمحي لي أن أكمل. ثالثاً، لم تصارحيني بالسبب الأهم. عمرها ليس السبب. أهل دير البحر يفضلون أن تتزوج الفتاة باكراً. كنت أود لو صارحتني بالسبب الأهم.

ـ السبب الأهم؟

ـ بلا تجاهل، أرجوك.

ـ أتجاهل ماذا؟

ـ إنني من الدين الآخر.

ـ تريد الصراحة؟

ـ طبعاً.

ـ الرأي هنا ليس لي.

ـ لمن؟

ـ للدين. علينا أن نقبل ما يفرض علينا شئنا أم أبينا. وانتبه أنه راح يضغط على أصابعه باضطراب وغضب، فحاول أن يسيطر على نفسه ولكنه أحس بصوته يرتجف: لناهدة ولي وجهة نظر أخرى. نرفض الأشياء التي تفرض علينا. نعتقد أن من حق كل فرد أن يختار مصيره، طبعاً دون أن يمنع الآخرين من اختيار مصيرهم أيضاً. هذه وجهة نظرنا ببساطة.

ـ هذا الجيل يريد أن يثور دون أن يعرف كيف.

ـ اطمئني، هذا الجيل غير ثائر. إنه كالقدم الصينية. قُولب من صغره. دير البحر ليست جاهلة لتترك أبناءها يثورون. تقتل فيهم طاقة الخلق منذ الطفولة.

ـ الأعداء على الباب ونحن نتلهى بكلمات لا معنى لها.

ـ الأعداء ليسوا المشكلة وحدهم. لنا اعداء في الداخل أيضاً. وقد فشلنا حتى الآن أمام أعدائنا في الخارج لأننا تجاهلنا أعداءنا في الداخل. علينا أن نثور على تراثنا أيضاً.

ـ تثورون على شيء كبير كبير، لا يتزعزع. أنتم واهمون.

توقف قليلاً. تراه دون كيشوت آخر؟ وسألها: لماذا لا نقول إننا نتوهم أن هذا الشيء كبير كبير لا يتزحزح فنرضخ؟ لماذا لا نقف في وجهه؟ لماذا لا نجرّب؟ قد نهلك. لا بأس. نريد أن نعرف، أن نتحرر، أن. . ووجد نفسه يحرك يديه بحيرة. يريد أن يعبّر عن شيء يحسه بحرارة. لا يستطيع. يلتفت إليها. ملامحها تفيض بالغضب. تقول: كلامك صريح. يجب أن اشكرك عليه. أقول لك ببساطة وصراحة أولاً، إن ناهدة، لم تخرج إلى الحياة فتتعرف إليها كما هي. ثانياً، في هذا الوقت العصيب الذي تجتازه بلادنا يجب أن

نحصر كل اهتمامنا في مواجهة الأعداء. ثالثاً، أريدك أن تكبت عواطفك وتبتعد عنها. سأسجنها في البيت إذا عرفت أنك التقيت بها. مفهوم؟

ـ مفهوم.

ـ هل تريدني أن أسجنها؟

ـ طبعاً، لا.. إنما..

وقاطعته: أريدك أن تسيطر على عواطفك، وبعد أن تمر هذه المحنة نفكر بالأمر.

ـ ولكن هناك..

وقاطعته ثانية: أريدك أن تعدني بأن لا تقابلها مرةً ثانية.

ـ أرجو أن تسمحي..

ـ لا فائدة. هذا مايجب أن يكون. الظروف الحاضرة لا تسمح بإضاعة الوقت في هذه المشاكل الصبيانية.

طبعاً، لم تسمع بأن قنبلة انفجرت في شارع السنديانة وانتفض في مكانه: متى؟

منذ نصف ساعة.

وتحرك فاستوقفته: أستاذ سهيل، لم تعدني.

ـ أعدك؟

ـ أقسم بدير البحر أنك لن تراها.

ـ أقسم.

وأسرع مضطرباً. توقف. حرمته أن يقول ما يريد. جعلته يتطلع إلى الخارج فنسي مشكلته. ما يزال مجروفاً في تيارها. وتابع سيره بسرعة واضطراب.

ـ 4 ـ

عندما انعطفا نحو الزقاق الذي يؤدي إلى بيتهم، لمح فريد أخاه يقف عند مفترق الطرق يعطي إشارة المرور للسيارات التي نادراً ما تمر من هناك. أما سهيل فتظاهر أنه لا يراه. لكنه لم يتابع حديثه عن القنبلة التي انفجرت قبل الظهر، بل ظل صامتاً وحاد عن الأوساخ في وسط الزقاق. وودّ فريد لو يتخلص من أخيه بطريقة ما. توقف. الفكرة مرعبة. أيرسله إلى مستشفى المجانين؟ ولكن من أين المال؟ أن يقبل بهذا الوضع، أن يرضخ، هذا هو كل شيء. أخوه مجنون وكفى. الجنون لم يولد معه. يقال إن في بيتهم لوثة جنون. ترى، أما كان يجن هو أيضاً لو وقعت القنبلة قربه ورأى أشلاء أمه وأخته مبعثرة على الأرض. أو معلقة على الجدران؟ الناس لا يحاولون أن يفهموا الدوافع. هو بنفسه، ألم يحاول الانتحار من أجل دراجة؟ في طفولته طلب من والده أن يستأجر له دراجة كرفاقه، ولكنه رفض فرمى نفسه عن الحائط. أبوه لم يفهم لماذا حاول أن ينتحر. الناس لم يفهموا. عندما طلب من سهيل أن يعيره دراجته، صرخ به: «حل عني يا شحاذ. استأجر واحدة». وضحك الشباب الذين سمعوا حوارهم. ودّ أن تنشق الأرض وتبتلعه فلا يراه أحد. الألوان تتدفق إلى وجهه، وجسده يتقلص. لم يسكت سهيل بل عاد يصرخ: «عيرني. . عيرني. عيرني. طبلتني. استأجر

واحدة». وعاد الشباب يضحكون. وركض إلى أبيه ليجلب فلوساً فيستأجر أجمل دراجة ويمر أمام الشباب، بل بينهم. سيزيّح الشارع بعجلاتها. سيتحدى سهيل. يتحداه في السباق. وعندما يسبقه يصفق الشباب. ولكن والده رفض أن يعطيه الفلوس. والده لم يعرف لماذا حاول الانتحار. الناس لم يفهموا. قالوا إن به لوثة جنون. هو أيضاً لم يفهم آنذاك.

والتفت إليه: سهيل، هل تذكر حادث الدرّاجة؟

ـ أي درّاجة؟

ـ يوم حاولت أن أنتحر.

ـ طبعاً. طبعاً.

أجاب سهيل ضاحكاً، ثم سأل: ما الذي ذكّرك بها؟

ـ لا أدري.

لم يفهم. لا يريد أن يشعره بماذا يفكر. عجب أن صبية الحي تركوا أخاه وشأنه هذه المرة. لا أحد يتجاذب الغطاء العسكري على ظهره أو البندقية الخشبية. لا يستطيع أن يتحمل هذا المنظر. يود ألا يرافقه سهيل إلى البيت. يشعر بالخجل عندما يزوره. لماذا لا يسكن وحده كما فعل سهيل؟

وأراد أن يتحرر من أفكاره هذه فسأل صديقه: ما بك؟

ـ في حياتي شيء جديد.

ولم ينتبه فريد لما قال صديقة فتابع: لا أدري ما نفعل.

ـ أحس أحياناً أن كفاحنا بلا جدوى.

وانتفض فريد: هذا ما يريده الأعداء تماماً. هذا هو الغرض من

إلقاء المتفجرات. كيف تسمح لنفسك؟ لسنا وحيدين في هذه المعركة. اطمئن. سنرمي بهم إلى البحر.

وسكت سهيل. رجل يبصق في الشارع. امرأة حافية. بائع حلوى ينكش أنفه. طنبر يقف أمام مقهى الشعب. والتفت ليقول بغضب وتوتر: نحن نحارب بلا مخطط. الفوضى تملأ كل شيء. إنها في الأساس، في صلب حياتنا.

توقف. استند إلى سور بيت فريد. ألقى نظرة على بيت لمياء. لا أحد. وقال بهدوء: كل ما في الأمر أننا بلا أساس.

ـ دائماً تتكلم في الأساس. أنت متشائم.

ـ أرجو الا تكون كثير التفاؤل.

ـ غداً ترى. ثم هل نستسلم ريثما نتغير من الأساس؟

ـ نستسلم؟ طبعاً لم أقُلْ هذا. كل ما في الأمر أنني لا استطيع تجاهل الحقائق فأصف الأشياء كما هي. أنت تحارب أملاً بالانتصار، أما أنا فأحارب لأنني لا أستطيع أن اهرب.

ـ آه ذكرتني بما قلت في خطابك. شيء رائع في الواقع. أن تحل بنا نعمة الموت. البطولة والتحدي. ماذا قلت عن السفينة؟ لا أدري كيف عبّرت عن رأيك. رائع.

ـ دعك من خطابي. لم أقصد ما قلت. شيء غريب أن تقف في جمهور. عند ذاك لا تستطيع أن تحدثهم بما تفكر وتشعر. تحدثهم بما يريدون. تردّد أمامهم أفكارهم ومشاعرهم. لا أفكارك، فيطربون. وتُسرُّ أنت أنهم طربوا. هذا كل ما يريده الخطيب. أن يقول ما يريده الآخرون.. أن يعجبوا به. أما الحقيقة، أما الحقيقة. آسف، لم أرد أن أقول شيئاً.

وضحك فريد. سرَّه تردد صديقة. تأمله مبتسماً وقال: الحقيقة أعلنتها فلا تتردد. في الواقع أنه لم يعد لنا غير الموت. إنه رصيدنا الوحيد. الموت يفجّر في هذا الشعب طاقات هائلة. رغم أنانيته، لا شيء يهزه مثل الموت.

ـ ربما لأنهم يخافون الموت. به ينتهي عهد الحريم والأكل والشرب.

ـ متشائم.

ـ نموت من أجل الوهم والفراغ. لا بأس. إننا نعيش أيضاً من أجل الوهم والفراغ. الموت والحياة شيء واحد. ماذا يفهم بائع الحلوى ذاك عن الموت؟

ـ تريد أن نستسلم؟

ـ لا

ـ تريد أن نهرب؟

ـ لا

ـ إذن، لا يهمني بماذا تفكر.

سكوت. ودعاه فريد أن يشرب القهوة معه، ولكن سهيل انزاح عن الحائط وقال: شكراً. أحتاج أن أكون وحدي.

ماذا؟ هل من جديد؟

عندما قلت لك أن في حياتي شيئاً جديداً لم تنتبه. وقفز فريد إليه وتمسك بذراعه: تعال نشرب القهوة ونتحدث. ما رأيك؟

أفضل أن امشي.

لا مانع عندي.

ومشيا في الزقاق. اتسع الطريق. تطلع نحو شرفة بيت لمياء. البيوت حوله أقزام. تطلع مرة ثانية. لا أحد. الناس يزدحمون. ولد يلاحق هرة.

ـ تركت لمياء؟

ـ طبعاً.

ـ إذن، عرّفني إليها.

ـ لا مانع.

ـ في حياتك شيء جديد، حقيقة؟ هات خبّرنا.

ظل سهيل صامتاً. لا يدري كيف يبدأ. وفجأة وجد نفسه يسأل: بوصفك من الدين الآخر، ما رأيك أن أُحب فتاة من دينك؟

وتوقف فريد عن السير. لم يكن ينتظر مثل هذا السؤال. وتأكد من الشكوك التي كانت تساوره. قال: لا رأي لي في هذا الموضوع.

ـ ما زلت كأبيك.

ـ وهل تريدني أن أكون كأمي؟

وضحكا: أريدك أن تتعالى.

ـ بكلام آخر تريدني أن أصبح ملحداً؟

ـ لا أحب الارشاد. كل ما في الأمر أنني أرفض أن أؤمن بشيء لمجرد أن أهلي يؤمنون به. أرفض أن أتبع دون أن أختار. ليس من حقي أن أضع الأجيال القادمة في قمقم وأغلق عليهم. . أحرمهم أن يتنفسوا بحريّة.

وسكت. مشيا. توقف فريد وسأل: من السعيدة؟

ـ ليس هنا الموضوع.

ـ أين هو؟

ـ قلت ما رأيك أن يحب شاب مثلي فتاة من دينك؟

ـ تريد أن تعرف رأيي حقيقة؟ إنه بسيط جداً. ليس من مشكلة في رأيي. كل ما في الأمر أن تعتنق دين الفتاة وتتزوجها. على الأقل تهتدي.

وضحك ولكن سهيل ظل عابساً. قال: هذا ليس حلاً. رضوخ للواقع. أنا وهي لنا معتقدات أخرى. كيف يحق للناس أن يعتبرونا غير ذلك. غصباً؟ بأي منطق يسلبوني حقي؟ لا أسمح لأحد أن يفرض معتقداته علي. بأي منطق؟ أليس من حقنا أن نختار مصيرنا. هذه حياتنا نحن. نحن نعيشها. لماذا أخضع؟ ولمن؟ لجماعة أعتبرها حصيلة التعفن في التاريخ؟

ـ أنت حقيقة تعني ما تقول؟

ـ فريد، أحب ناهدة.

ومع أنه عرف أنه يحب ناهدة، أحس أن تصريح صديقه قد صدمه بعنف. أسرع. توقف. لم يستطع أن يقول شيئاً. أسرع. توقف: هذا شيء خطير.

هر توقف أيضاً. مثله سأل بغضب ودهشة: خطير؟ أنت متعصب. ليس من عمامة حول رأسك. إنها في دماغك.

لم تفهم ما قصدت.

وتوقف. أدرك أنه قد رفع صوته. هدأ وقال: لم تفهم ما قصدت. لم أنظر إلى الأمور من وجهة نظر دينية.

ـ هناك وجهة نظر أخرى أيضاً؟

ـ سهيل، تريد أن تفهم؟

ـ طبعاً.

ـ أشعر أنك تقدم على عمل خطير. لا أدري لماذا أحس بذلك.

ـ أنا أعرف لماذا. أنت تقدس أباها، مثل كل فرد في هذه البلدة. لقد أصبح رمزاً للبطولة والتحدي والتضحية. القداسة جرَّدته من إنسانيته. مع الزمن أصبح صنماً، مثله مثل قبور الأولياء حول البلدة. لذلك قلت من برهة إنني لم أقصد ما قلت في خطابي اليوم. موت الشهيد رائع. إنه يفجر في الناس طاقات هائلة. ولكن القداسة، مع الزمن، تسلبه الحياة فيتجمّد ويتجمدون. القداسة تجرّد الأشياء من الحقائق. تصبح صنماً.

وتوقف سهيل عن الكلام. ماذا يقول؟ ليس هذا ما يريده تماماً. ويسمع فريد يقول «كمّل» فيتردد برهة ثم يتابع بهدوء: قدّسنا إبراهيم العامري فنصبنا له تمثالاً في وسط البلدة. لم نقدسه هو فقط، بل كل ما ترك، بما في ذلك ناهدة. لذلك نجردها من لحمها ودمها وعظامها. لا نستطيع أن نتصور أن ناهدة تحب وتُحَب.

وردّ فريد تحية بائع الخضار في حانوته ثم تابع الاصغاء إلى صديقه: هل تستطيع أن تتصور أنها تأكل وتشرب وتذهب إلى المرحاض وتحلم برجل. أنا أستطيع أن أفعل هذا. لم أجردها من لحمها ودمها وعظامها. لذلك أحبتني. سنتزوج رغماً عن أي شيء.

شعر فريد أنه غضب من كلام صديقه وأنه فرح به. إنه صوت جديد. ولكنه وجد نفسه يقول: أنت تثير مشاكل ليس لدينا الوقت للتفكير بها هذه الأيام.

ـ هنا المشكلة. دائماً نهرب. دائماً نبرر الهدنة التي أقمناها مع الأعداء في الداخل. لماذا؟ إما لأننا نجهلها أو لأننا نخاف أن نواجهها. لنعد. أوصلك إلى البيت. يجب أن أعود إلى غرفتي. عاد الحر يلفح الأرض.

ومشى عائداً دون أن يفسح لصديقه مجال الكلام. وضحك فريد: أنت مضطرب تهذي. لا بأس.

ـ في الهذيان نكون أقرب إلى الحقيقة. لا ننافق على الأقل.

ـ أرجو الا تهذي في مهمتك غداً.

ـ لا أدري. قد أفعل. ربما بذلك أستطيع أن أقنع أصدقاءنا. هم مثلنا خلاصة العفن.

ـ المهم الا تفاوضهم وأنت متشائم. لا أدري كيف تقنعهم وأنت غير مقتنع.

ـ كما أقنعت الجماهير اليوم.

ضحك فريد وقال عندما وصلا أمام بيته: نراك غداً. آه؟ أراك في الاحتفالات مساء. على كل لا تنسَ. الساعة الرابعة صباحاً.

عندما مضى سهيل دفع فريد البوابة الحديدية الصدئة دون أن ينتبه لصريرها وقفز متسلقاً درجات السلم الوسخة إلى الطابق الثالث. فتح الباب بهدوء ومشى في الممر فسمع أباه يناديه. توجه نحو غرفته وأطل من الباب. كان ابوه جالساً قرب النافذة يتطلع إلى الخارج. وسأل دون أن يدخل: ماذا؟

ـ أدخل.

اقترب منه مبتسماً، وكان ما توقعه فقد سأل الأب: أي أخبار؟

ـ لا شيء غير عادي. قنابل. انفجارات. موت. رعب. لا شيء.

ـ مات أحد؟

ـ لا البناية سقطت. بعض الجرحى فقط. لا أدري.

ـ لا تدري، آه؟ عندما يزرعونها في بيتنا من جديد قد تدري.

ـ وماذا نفعل؟

واستدار الوالد عن النافذة ليتفرس بابنه بغضب: ماذا تفعلون؟ لماذا لا تقومون بحملة ارهابية أيضاً؟ تسللوا إلى قلب صفوفهم. اضربوا وموتوا. هذا الجيل يفضل أن يموت في سرير.

وسكت. أحس يهدوء غريب يسيطر عليه. حاولوا ففشلوا. مراقبون. وخطرت في باله فكرة فقال لوالده: ولكن..

وقاطعه والده: ولكن. ولكن. لا أريد أن أسمع هذه الكلمة. حالة لا تطاق.

كان فريد يهز رأسه في أثناء ذلك كأنما يقول له ليس هذا ما أقصد. ولما توقف والده ليستعيد أنفاسه قال:

ـ المسألة أهم وأدق.

ـ بلا مسألة بلا أدقّ. لماذا لم تحدث هذه المشاكل ونحن شباب؟

من قال إنها لم تحدث؟

مرَّ برأسه ما اعتاد أن يردّده سهيل فتابع: هذه المشاكل لم تبدأ اليوم. بدأت قبل أن تولد أنت. كنتم من جيل أعمى يعيش على هامش الوجود. تختلفون حول أشياء تافهة. تعبدون أصناماً. جيل يأكل ويشرب ويلعب الطاولة وينام رجاله مع زوجاتهم بعد الظهر فيما يعدّ الأعداء المخططات لقهرنا. فيما هم يعدّون الخطط كنت أنت تبني سوراً حول بيتك كي لا تقع العيون على حريمك.

جمد الأب. الهدوء يسيطر على كل شيء. شعر فريد بالندم يضبّه في نفسه. يتلاشى الغضب. يتقلص. أإلى هذا الحد أثّر عليه سهيل فلا يتردد عن رجم أبيه بهذه العبارات القاسية؟ دائماً كان يقول لأصدقائه إن أباه ذو جوهر أصيل طيب. هو أيضاً ضحية جيل جاهل. جلس قربه بحنو. قال: آسف. لم أقصد أن أوجّه أي إهانة. ستشهد هذا الأسبوع بطولة لم تحلم بها هذه الأرض. آسف إذا كنت قد جرحتك.

أحس بيد أبيه على كتفه وسمع صوته المخنوق: جرحتني؟ لم أتعلم في المدرسة. لم ألتحق بالجيش وأتعرف إلى العالم. ولكن الحقائق لا تجرحني. علمني الشهيد إبراهيم العامري أن أقبل عليها بكل وجودي. أنت تعرف ما قال. حياتنا تستحق أن نموت من أجلها.

سكوت. يتابع: هو مات. أنا بُترت رجلي. لماذا لم يكن العكس؟ الله يرحمه. ما قلته يا ابني، صحيح. لذلك تواجهكم مسؤولية أجيال، لا جيل واحد.

وعاد إلى الصمت. هبَّة ريح ربيعية تعبره فيشتمّ رائحة المطر. يودّ لو يقف تحت المطر ويسير في الشوارع متحدياً كل شيء. تذّكر ما كان يقول سهيل. العالم بحاجة إلى من يتحداه. يود لو يهدم هذا السور الذي يفصلهم عن البحر. لو يمزّق حجب النساء ويبقر البطون الكبيرة المتخمة، ويلطم الوجوه الضاحكة دائماً، اللاهية عن العالم حولها، ويبصق في وجه الذين يبيعون أملاكهم ويهربون.

ـ كلما سقط جدار في هذا البلد أحِسُّ أنه يهبط على صدري.

شعر فريد أنه تفلت من ذلك الجو الضبابي عندما سمع كلمات

والده. كأنما شيء قاتم قد انجلى عن المقعد والأشجار. كلمات أبيه تهزّه دائماً. فيها أمواج من الأحاسيس الحية. ما يقوله قد لا يوافق عليه، إنما يحسه شيئاً صادقاً حاراً حيًّا متموجاً مرتفعاً هابطاً متوتراً. وتذكَّر ما قاله له سهيل وهما يتناقشان في يوم من الأيام:

«لا أوافق على الكثير من آرائك. لا أوافق على وجهة نظرك من الأساس، ولكنني أحترمك، وأشعر أنني فشلت عندما أفكر بالتخلي عن صداقتنا، لأنني، أحياناً، لا أقيس أهمية الأشياء بكونها صحيحة أو غير صحيحة فقط، إنما بكونها غنية بالحياة والصدق والحساسية. لذلك أعجب بنيتشه رغم أنني لا اوافق على الكثير من آرائه. إنه كائن حي ينتفض وليس آلة حاسبة. الآلة الحاسبة دائماً صحيحة ولكنها لا تحركني.»

إذا كان سهيل صادقاً فهو مثل أبيه. إنه يشبهه. ترى..

ـ ولكن الحالة عاطلة.

والتفت إلى والده الذاهل عن كل شيء حوله فوجد فرصة يحدق فيها بشعره الأبيض المائل بإهمال نحو جبهته، بالأخاديد العميقة والخطوط المنحنية في وجهه. جميل أن يصبح وجهه مثل وجه أبيه في المستقبل. كأنه شجرة سنديان عالية تطل بكبرياء على واد سحيق. الكبرياء والألم، كم يعجب بهما. لا يدري بما يفكر. الألم والكبرياء، تراهما كلمتين فارغتين يلصقهما بوالده، يجرده من لحمه ودمه وعظامه، ويجعله صنماً؟

والده ما زال يحدق بلا شيء، يقول: الوضع لا يحتمل. أرسلوا فدائيين إلى قلبهم. إرهاب. متفجرات. رعب. غداً يهرب الناس.

وسقطت العباءة التي كانت تغمره حتى وسطه. عاد وجهه يفيض بألوان غريبة. تطلع برجله المبتورة.

وبهدوء لملم عباءة أبيه وغمره بها. أحس بألوان غريبة تفيض من وجهه وهو يقول: سنرسل فدائيين. وعند المعركة سنواجه الموت. سنقف في قلبه نحدق به. نهزمه أو نتشرد.

ـ 5 ـ

في المساء لم يلتجئ سهيل إلى شقته الصغيرة. فكَّر أن يزور أمه، فقد جاءت إليه عدة مرات ولم تجده. يعرف ما تريد. يفضل أن يذهب إلى بيت عمه إبراهيم. ربما يتجادل معه أو مع ليليان. في الجدل ينسى الوقت. يجادل بدل أن يلعب الطاولة. ألا يحق له أن ينسى الوقت؟ ليس بحاجة لأن ينسى في هذه الأيام. أشياء كثيرة تشغله. الحب والموت عالمان مليئان بالوجود. يبدو أنه يجد لذة في الجدل. ليس مجرد وسيلة للنسيان. فيه ينفعل ويهدأ، يغضب ويلين، يتكلم عن معنى وجوده وعلاقة الرجل بالمرأة وصيد الأسماك والخلق والتجارة والثوب الذي تلبسه ليليان والطقس والدين، أو يصمت ويصغي. ليس من أجل هذا يريد أن يذهب إلى بيت عمه الآن. وإلا لماذا لا يذهب إلى المقهى ويتحدث مع عبد الجليل وفريد؟ وإلا لماذا يتجنب عمه فكتور فلا يمر من أمام بنايته؟ طبعاً لا يريد أن يتذكره. لا يريد أن يرى وجهه المسخ وقميصه الممزق وقدميه الحافيتين. ربما لم يهتم بالمال لأن عمه يعبده. يجعله غايته ومصيره ومعناه. يسير حافياً في الشوارع بينما يملك الكثير من المال وبناية يؤجرها ليسكن في غرفة حقيرة على السطح. الناس يسخرون منه. يلقبونه بـ «أبو عزيز» رغم أنه لم يتزوج. يكره المرأة. لماذا؟ لا يعرف. ربما لأن واحدة لم تحبه. لا يكفي،

فكثيرات هنّ اللواتي يحببن المال. طريف أن يتحدث معه عن المرأة. تذكّر حديثاً لهما فضحك مع نفسه ولكنه عاد فعبس. تذكّر أيضاً الكلام القارس الذي وجهه إليه منذ أسبوعين. مرَّ أمام بنايته فناداه. توقف. أطل من وراء البوابة الحديدية وقال: ولو، يا سهيل، أنا عمك مثل ما هو عمك. تزوره لأنه يعبد الله فقط، وتتجنبني لأني أعبد المال والله؟ أو لأنه يلبس حذاء في رجله؟

ـ أنت مشغول دائماً.

ـ من قال؟ أنا دائماً هنا. كل شيء عندي لك. غداً أموت. تظن أني أترك فلوسي للبنات؟ تعرف أني أكره التراب تحتهنّ.

وشعر بحنوّ نحو عمه يوم ذاك رغم كل شيء. واتجه إلى البوابه. فكّر أن يجلس معه قليلاً وفي الخارج. عمه يحب أن يجلس معه في الخارج فيراهما الناس معاً. اقترب من البوابة الحديدية ولكن عمه ظلّ مستنداً إليها من الداخل. لم يفتحها. أطل من وجهه وحش مفترس وقال: أغراك المال، آه؟ كان يجب أن أقول إن أموالي لك من زمان كي تزورني دائماً.. كي تظل هنا. على الأقل ما كنت تتجنبني في الشارع.

وأطل من وجه سهيل وحش أيضاً. أراد أن.. ولكنه هدأ فجأة وأدار ظهره ليكمل سيره نحو شقته بدون أي كلمة. من الأفضل أن يتجنبه. لماذا عاد إلى هذا البلد؟ ما كان يجب أن يترك نفسه بلا عمل وينتظر الأفلاس. لو عمل بالإضافة إلى القراءة وحضور المسرحيات والاصغاء للموسيقى والتنعم بالأجساد الباردة. منذ البدء وضع في ذهنه أنه سيعود. لماذا؟ لا يدري. يقول إنه سيد مصيره. الزمن يجرفه إلى حيث يشاء. لماذا لا يترك هذا البلد؟ يقولون إنه

هرب. وماذا إذا قالوا؟ كان يجب أن يترك من قبل. بعد المعركة سيترك. إذا بقي حياً. يكون قد أضاف إلى حياته تجربة جديدة.

ووجد نفسه يسرع إلى بيت عمه إبراهيم. لماذا؟ يحب الجدل؟ يريد أن يرى ليليان. لقد أصبحت أكثر من مجرّد ابنة عمّ تعجب بثقافته وذكائه. بها رائحة ناهدة. هي التي عرّفته إليها. دائماً تهتم بأخبارهما. سيطلب منها أن تدعوها للخروج معهما إلى الاحتفالات. من أجل هذا يزور بيت عمه الآن؟

سرّه أنه رأى ليليان تتجه إلى التلفون عندما جلس في غرفة الاستقبال. عرفت ما يريد دون أن يكلّمها. تديره. تنتظر. تبتسم له. تتأمل السقف. يتأمل هو جسدها الضخم المترهل. سيطلب منها أن تخفّف وزنها. لن تغضب منه. ستظل تبتسم كما تفعل دائماً. الابتسامة تنمحي فجأة: هلو. من فضلك ممكن أحكي مع ناهدة؟

تنتظر. لا تلتفت إليه. يخرج عمه من الغرفة المقابلة فينهض ويصافحه: كيف حالك؟

ـ عال كيف أحوالك أنت؟

عادت ليليان تتكلم فيسمعها تقول «هلو، ناهدة» فيما هو يجيب عمه: عال. عال.

ـ نشكر الله. الصحة من الإيمان.

لا بد أن يعلّق. يصغي لليليان: استأذني منها. أخبرتها أنّنا سنحضر الاحتفالات. أنتظرك هنا، آه؟ I am not alone

وضحك. تعيد السماعة وتدخل إلى الغرفة التي خرج منها والدها. فكّر أنها أرادت أن تتجنب أسئلته. تتحدث مع أمها في الداخل. يلتفت هو إلى عمه الذي يقول: لم أعرف أنك خطيب

ماهر. لقد أجدت.

ـ شكراً.

ـ إذن، ستحارب؟

ـ أعتقد.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

صمت عمه لبرهة ثم سأل: أهذا ما أوصانا به الرب؟

ـ أنا أوصي نفسي، عادة، بما يجب أن أفعل. لست تابعاً.

ـ وماذا أنت؟

ـ أنا سهيل.

وضحك لكن عمه ظل هادئاً. عجب أنه لم ينفعل. لا يحنق أو يبتسم. دائماً يحاول أن يكون هادئاً.

وسأله ثانية: تعني أنك لا تهتمّ بالدِّين؟

ـ لا أدري. ليس في المعنى المألوف. إنما تأكد بأنني أحب الحقيقة. من أجلها أخوض الحرب كما أحب السلم.

ـ بأي حق تقتل إنساناً آخر؟

ـ كي لا يقتلني.

ـ وهل تعتقد بأنك تنال الخلاص بهذا؟

ـ أنت تبحث عن الخلاص والسلامة. أنا أبحث عن الحقيقة.

وسرّه أن ليليان عادت في تلك البرهة. لا يشك في أنها ستؤيد وجهة نظر أبيها، ولكنها ستحاول أن تغيّر الموضوع كما تفعل دائماً.

وهذا ما حدث. راحوا يتحدثون عن الأطفال عندما مرت

والدتها في غرفة الاستقبال إلى المطبخ حاملة بطنها أمامها. فكر أنهم يريدون صبياً إلى جانب ليليان. قال لها «مساء الخير» وعاد إلى الحديث. تكلموا عن ارتفاع الأسعار وأملاح البحر وتقلب الطقس في بدء الربيع هذا. وكادوا ينتقلون إلى الموضوع الأول عندما دخلت ناهدة. بدت له صغيرة. إنها غير لمياء. ولكنها ذكية وبريئة. لمياء ذكية ومثقفة. رغم هذا الفرق شاسع. ربما يريد أن يبرر حبه لها. لا يدري أهي جميلة أم لا. لمياء جميلة.. كانت جميلة. وصافحها دونما انفعال. لا يريد أن ينتبه عمه إلى وجود علاقة بينهما. ولماذا؟ لا يدري. لا يريد، هذا كل ما في الأمر. تجلس ثم تقف وتتطلع بالصورة المعلقة على الحائط قائلة: صورة جديدة، لم أرها من قبل.

وحدقت بها رغم نفورها من ألوانها وخطوطها التقليدية. ظنت أنها تعرف ما تعني ولكنها قالت: لا أفهمها.

لم يترك والد ليليان الفرصة تمر دون أن يتكلم: في الصورة طريقان. طريق ضيقة شاقة تنتهي إلى الله. هنا الخلاص وراحة البال. أما الطريق الواسعة إلى اليسار فتكثر على جوانبها المقاهي وبيوت اللذة والقمار وغيرها من الأشياء الدنيوية فتنتهي إلى الجحيم. هنا النار والقلق والعذاب..

وقاطعه سهيل ساخراً: الطريق الضيقة لا تصلح للسيارات، وأنا أفضل أن أركب سيارة بدل أن أركب قدمي.

وشعر بالارتباك. لم يضحك أحد لسخريته. باردة. رغم هذا تابع كأنما ليعوض: ليس المهم أن نبحث عن الاطمئنان والسلامة وراحة البال. المهم أن نبحث عن الحقيقة التي ندركها بالاختبار. من أجلها قد نقلق. لا بأس. العلم وسيلتنا. كاد يكون توما أبونا لو

لم يتخلَّ عن أن يضع أصبعه في الجرح. المهم أن نبحث عن الحقائق.. أن نجردها من الوهم، لا عن سلامة «أنا» و«أنت» و«هو». لذلك أفضل القلق على الاطمئنان.

ـ وهل تعتبر التنزه في السيارة بحثاً عن القلق أم الاطمئنان؟

وشعر سهيل بحرج. صدمه السؤال. وبتشتت قال: طبعاً لم أقصد ما قلت عن السيارة. كنت أضحك فقط.

ـ أما أنا فقصدت ما قلت. كنت جاداً.

وتغيّرت ملامح سهيل. نظر إلى ناهدة. أراد أن يقول شيئاً، أي شيء فحاول أن يعبّر عن فكرة كانت قد تداعت إلى ذهنه: كلمة دنيوية، تلفظها باحتقار، لماذا؟ إنها وجودنا. إنها النبع والقمح والليمون والأودية والجبال والبحر. إنها..

وتدخلت ليليان: ناهدة ما رأيك بنزهة؟

ـ فكرة رائعة!

ـ ما رأيك أن تذهب معنا؟

أشارت إلى سهيل فنهض قائلاً: نكمل الحديث في وقت آخر.

ـ طبعاً، طبعاً.

وخرج معهما إلى الشارع. الهواء البارد يلفح وجهه الحار. تنشق بعمق. صراخ الناس يأتي من الساحة العامة. يود لو يصخب، لو يضيع بين الجماهير، لو يصرخ، لو يرقص مع ناهدة أمام آلاف العيون المحدقة. يمس صنمهم، يدنّسه. يريد أن يتحداهم.. أن تترامى عليه خيالات النيران المشتعلة على السطوح.

ـ نمشي قليلاً قبل أن نذهب إلى الساحة.

التفت إلى ليليان. كانت ما تزال تشير إلى الطريق الشمالية

المنفردة. تطلعت إليه. حدَّق بها وابتسم واتجهوا صوب الطريق الشمالية. الأصوات تبتعد. تكاد تتلاشى. قالت ناهدة كي تنهي الصمت الذي يسود: نقاش طريف.

ـ أي طرافة؟

ـ هو أيضاً يجيد الحديث.

ـ الحق علي. نتناقش في أمور تافهة.

لم يجد شيئاً آخر يقوله. أين تبخرت أفكاره؟ وتابع: أبسط الأمور تثيرنا فنتحمس ونحكي ونحكي ونحكي.

وسكت. الهواء البارد يلفح وجهه الحار. وتقول ناهدة: ولكن هذه الأمور هي حياتنا. إننا نعيشها، تقرر مصيرنا، لذلك لا نستطيع إلا أن نناقشها.

ـ لذلك أتساءل أحياناً إذا كنا نستحق الإنقاذ حقيقة.

وانتبه إلى أن ليليان تسير أمامهما. تريد أن تتركهما وحيدين. تعرف ما يحتاج إليه أكثر مما يعرف هو. إنه يجادل ويجادل. وصمت. يكاد يسمع نضبات قلبه. الدم يتدفق في عروقة دافئاً. غيمة تقترب من الأرض. «أيتها الجزيرة المغمورة ارتفعي فوق البحر. قفي في وجه الشمس». ويقترب منها. وتقترب منه. الفواصل بينهما تنهار. ودون أن ترى عينيه تحس أن في سمائهما غيوماً سوداء. تودّ لو تغرق في عينيه، أن تجلس في ظل الغيم. المطر يتساقط عليهما. أصابعه تلامس أصابعها. تلتقي عيونهما فتحس كأن شيئاً في صدرها قد انخطف. أمواج من اللهفة والرغبة تجرفها في تيار من الظلال والأضواء والألوان. ويجذبها نحو صدره. خيوط من اللهب والنشوة والاستسلام تحاك حولها. لا

يقول شيئاً. وتنخطف فجأة. يداه تحيطان بها. يضمها إليه بقوة وسرعة. وترتفع عيناها إليه فترى شفتيه تقتربان ببطء. تبتعد. لماذا ابتعدت؟ لا تتحرك. تغمض عينيها. لا يقبِّلها. تيار غريب يسري في عروقها. لا يقبّلها. وتنفصل عنه فجأة:

ـ نسيت ما وعدت الماما؟

ـ اسكتي أنت والماما.

وتنخطف ثانية. التيار الغريب يسري في عروقها من جديد. وتنفصل عنه فجأة: سمعت؟

ـ لا. ماذا؟

ـ وقع خطوات.

ويضحك: خوف أم شطارة؟

ـ لا أدري ما تقول. سمعت وقع خطوات.

ـ ربما قلبي.

وتضحك. يحب ضحكتها. الصمت يعود. وتنتظر أن يأخذها بين ذراعيه ثانية، ولكنه ظل صامتاً. لماذا لا تتركه يقبِّلها؟ تفضل أن يظل يهفو. وسمعته ينادي ليليان. فتلتفت إلى الوراء دون أن تتكلم فيقول: لنرجع صار وقت الاحتفالات.

هي الآن تهفو. لماذا لم تتركه يقبِّلها؟ وقالت: أمامنا وقت واسع.

ـ لا أريد أن أسهر. علي أن أنهض باكراً. عندي مهمة؟

ـ مهمة؟

وتضحك فيقاطعها: ما بك؟

ـ لا شيء. لم أنتظر أن تأخذ الموضوع جدياً.

ـ وهل آخذ الأمور بشكل غير جدي، عادةً؟

ـ لا

ـ إنما.

ـ أراك حائراً، مشككاً، قلقاً، لذلك حسبت أنك لن تأخذ الأمور جدياً. على الأقل لن تتخذ قراراً معيناً.

ـ أنا جدي، لذلك أنا مشكك وقلق وحائر.

ـ شيء جديد. إذن هناك خلاف في وجهتي نظرنا.

وتوقف. لا يدري ما يقول. لم يكن ينتظر أن تبدي هذا الرأي. وسرَّه أن يكون لها رأي آخر يختلف عن رأيه ويتناقض مع وجهة نظر أبيها بالذات. أبوها الذي قدس الناس كلماته. إنها مستقلة. وعادت ليليان فلم يعد إلى الموضوع. ظل صامتاً. أصوات المحتفلين تقترب نحوهم.. تقترب. غناء شعبي يختلط بالأصوات، ينطلق عن مسرحها. ويسرع. لماذا يحب الغناء الشعبي؟ يجتذبه قبل أن يظن أنه سمعه. ربما لصدقه. ربما لأنه جزء من طفولته. يسرعون. يجدون أنفسهم في الساحة العامة وسط جمهور كبير يصخب. ينجذبون نحو حلقة تدبك لدير البحر. يشقون طريقهم بين الوجوه الفرحة المتحدية. في حياتهم شيء جديد. يعيشون من أجل شيء. ويحدق بالوجوه. رجل عجوز يدبك. طفل بين الأقدام يحدق. مؤخرة فتاة تتوثب إلى الوراء. تمتد يده نحوها. تلامسها وتعود إلى جيبه. يتظاهر أنه يتأمل الدبكة. تلتفت إليه الفتاة وتبتسم. يضحك فتحدق به ناهدة مستفهمة: ما بك؟

ـ لا شيء.

يضحك ثانية. كانت الفتاة قد اختفت. قدمان حافيتان. سروال

يهتز. خروف. يحاول أن يعود إلى الماضي. ويتعالى الصراخ فيلتفت. المحتفلون يحيطون بناهدة. صراخهم يرتفع نحو تمثال أبيها. صوت يرتفع مجلجلاً «يعيش الشهيد إبراهيم العامري». فتتجاوب الأصوات «يعيش إبراهيم العامري». في أصواتهم حرارة. عرف كيف يجسد آمالهم. هو ماذا؟ لا شيء سوى إنه يطالب بحريته. تُرى، ألا تريده ناهدة أن يطالب بحريات الآخرين؟ فريد يدبك. ما يزال بلباس التدريب. يشير إلى المغني أن يغني. منديله يدور على نفسه في الهواء. يرتفع الصوت المبحوح. يتطلع بكبرياء وتحدّ. الأقدام تنتظر بهدوء، تتحرك بهدوء، وتصخب فجأة. تضرب الأرض بتحدّ. ناهدة تراقبهم باهتمام. التفت إلى ليليان مبتسماً. اقترب منها فقالت: أمها هنا.

ـ على الشرفة هناك.

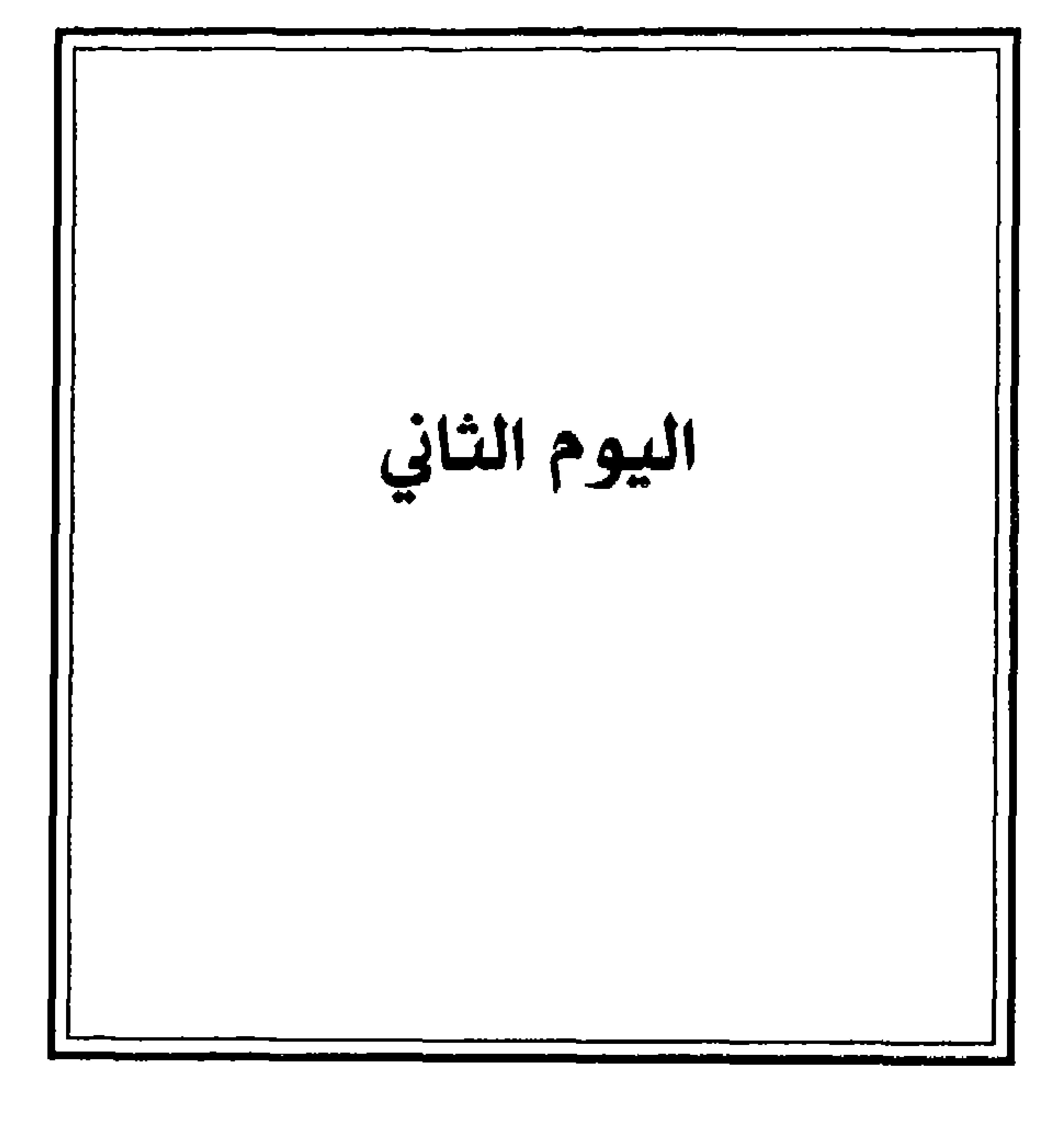
ـ أين؟

أجابت دون أن تنظر إليها. حدق بالشرفة. تجلس هناك مراقبة الجمهور من فوق. وشد على يد ليليان: Bye

ـ إلى أين؟

ـ إلى البيت. يجب أن أنام. ديري بالك عليها.

ومضى قبل أن يسمع جوابها. عقربا الساعة الكبيرة في الساحة لا يتحركان. مرّ على حلقة تحيط بإمرأة تهز بطنها. ابتعد. مر على حلقة من الشباب يحيطون بعازف الأكورديون. ابتعد. فسيفساء. الأصوات تبتعد أيضاً، دون أن تتلاشى. النيران على السطوح. خيالاتها تترامى في الشوارع الضيقة.. تتراقص.. تتحدى. الجزيرة ترتفع فوق البحر.. تواجه النار.. تلتف بخيالاتها الراقصة.


اليوم الثاني

ـ 1 ـ

وقف فريد عند باب المغارة في صدر الجبل الوعر. الأشجار الكثيفة تحجبهم عن العالم وعن السيارة التي نقلتهم إلى هذه المنطقة الجبلية على الحدود. تسلّق الصخرة المرتفعة قرب المغارة بحذر وألقى نظرة على الأفق البعيد إلى الجنوب. الأعداء رابضون هناك. ثم إلى الغرب. الشمس بدأت تغرق في البحر. بعد برهة تغمر الظلمة كل شيء. لو كان باستطاعة السيارة أن توصلهم إلى منتصف دير البحر فلا يضطرون أن يتجرجروا في هذه الطرقات الوعرة. ولكن عيون الأعداء تملأ الطرقات. هل تبقى دير البحر دائماً لكل فاتح؟ كل ريح تهب تعبر وجودها وتجرف ترابها. الجذور معلقة في الهواء. ماتت. دير البحر بلا جذور. كلمات سهيل تتبعه. يكرهها.

وانحدر عن الصخرة. كان عبد الجليل وعامر ينتظرانه عند المدخل. أصوات المجاهدين تسمع في الداخل.. تتخالط وتتعالى. يتجادلون. ويسأله عبد الجليل: ماذا؟

ـ نسير بعد قليل.

ـ عظيم!

تأبط عبد الجليل ذراع فريد ودخلا إلى المغارة. المجاهدون يتجمعون حول رزم البنادق وجعب الرصاص. يتجادلون بأصوات

مرتفعة: لو كان معنا بغال على الأقل.

ـ قلنا لك أن الطريق صخرية، ودعسات البغال تسمع حتى جهنم.

ـ بلا جهنم، بلا سخافات. الأعداء..

ـ من قال ما معنا بغال؟

صرخ عامر فضحكوا. ولكن فريد قاطعهم بصوت واثق: بلا حكي. الموضوع انتهى. نسير بعد عشر دقائق.

ويخرج فيتبعه عبد الجليل. يسير قربه ويسأل: ما رأيك الآن؟

ـ بماذا؟

ـ لا حاجة للتخوف بعد الآن. قلت إننا نتعامل مع دولة شقيقة يهمها الأمر كما يهمنا.

ـ ما زلت متخوفاً إلى حد ما، رغم أنني كثير التفاؤل في طبعي.

ـ سهيل متشائم. أخاف عليك منه. وأخاف على قضيتنا.

ـ تخاف؟

ـ لا، إنما.. لا أخاف من أي قوة. سيرسلون لنا الضباط ليشرفوا على إعداد المعركة أما السلاح فهذه صفقة منه. بعد يومين. يوم الخميس يكونون قد هيأوا لنا صفقة ثانية. سنفرض على كل عائلة دفع بعض الفلوس. بقدر ما تكون الفلوس تكون الأسلحة.

ـ طبعاً.

ـ إذا وفّقنا في الصفقة الثانية لا يبقى أي مجال للشك بنجاحنا. تأمل. تأمل.

ـ أتأمل ماذا؟

ويجيب عبد الجليل: أكاد أرى منذ الآن مواكبنا ترقص في الشوارع للنصر. تأمل ما أروع هذا المشهد. أحب أن أموت في سبيل دير البحر لولا أنني أحب أن أشاهد أفراح النصر. سأخوض المعركة بكل دمي. أرجو ألا أموت.

وتوقف عبد الجليل عن الكلام. تطلع إلى فريد فوجده ذاهلاً. كأنه في عالم آخر. وضع يده على كتفه: ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ لماذا لا تقول شيئاً؟

ـ فكري مشغول بموضوع آخر.

ـ ماذا؟

ـ نتحدث فيما بعد. يجب أن نمشي الآن.

ومشى فريد نحو المغارة بهدوء. دخل ووقف أمام رفقائه المجاهدين. حدق بهم برهة خاطفة. اقترب عبد الجليل ووقف قربه. قال بهدوء: تساءلت إذا كان بيننا من يخاف.

وصمت برهة ليتابع بقوة: هذا السؤال تلاشى من رأسي الآن. في عيونكم ثقة وشجاعة وتحدّ. بالثقة والشجاعة والتحدي نتغلب علي أي صعوبة مهما كانت.. حتى على الموت الذي أصبح غاية من غاياتنا الكبرى.

خاف فريد أن يتابع صديقه خطابه فتقدم فجأة نحو أكبر رزم البنادق وقذفها إلى كتفه. ترتفع بعض الأصوات معترضة: هذه لي.

ـ لا. لي أنا.

ـ خليها عنك.

ـ اتركها للبغل.

قال عبد الجليل وهو يضع يده على كتف خالد، فارتفعت الضحكات وارتفعت معها رزم البنادق إلى الأكتاف. سار فريد وعبد الجليل وعامر في الطليعة وتبعهم الشباب. قال عامر: لن نجتاز الغابة قبل أن تخيم الظلمة. كان يجب أن نبدأ السير من قبل.

وأجاب عبد الجليل دون تردد: حتى الآن لم تفهم فريد تماماً. كان يجب أن تعرف لماذا أخّرنا. قصد أن نخرج في هذا الوقت بالذات.

ـ لماذا؟

ـ يريدنا أن نواجه الصعوبات والمخاوف. يجب أن نجتازها حقيقة، وإلا كيف يمكن أن نصمد في المعركة. أليس كذلك، فريد؟

ـ لا أدري.

وأجاب عبد الجليل: طبعاً تدري. كيف لا؟ لقد قررنا شيئاً خطيراً. تأمل، أن نموت أو نبقى. دائماً أتصور المعركة الأخيرة. الأعداء يهاجمون. ونحن في وجوههم كالطود لا ننزاح. أن نموت جميعاً وتبقى دير البحر. شيء رائع جداً. رائع أن نعيش من أجل قضية. رائع جداً.

ـ مرعب جداً.

ـ سنسحقهم سحقاً. لن يبقَ منهم واحد نرميه في البحر. أتصور نفسي منذ الآن أحصدهم بهذا الرشاش. يا الله ما أروع المشهد.

والتفت عبد الجليل إلى الوراء. أيدي المجاهدين تمتد إلى الأمام لتزيح الأغصان الصغيرة عن طريقهم. ازدادت ابتسامته عندما تطلع إلى جورج. حدَّق بعنقه الضخم وقال لعامر: هل لاحظت أن عنق جورج أضخم من رأسه؟

ـ ألم تلاحظ هذا قبل الآن؟ وهل تعرف أنه يأكل نصف كيلو بصل مع كل وجبة؟

ـ أعرف. وأعرف أنه زاول المصارعة مدة عشر سنوات وقتل سبعة من الأعداء على الحدود.

ـ جبّار.

والتفت عبد الجليل إلى الوراء ثانية ولكنه عاد يتطلع أمامه. الطريق تزداد وعورة. بعض النجوم بدأت تشع. الظلمة تحيلهم رويداً إلى أشباح. السكون يعمق. الأشواك ترتفع فتعلق بأحذيتهم وثيابهم. يرتفع عواء ابن آوى فجأة، فيجيبه عبد الجليل مقلداً صوته ولكن فريد يصرخ: هـ. . س.

ويصطدم غصن بوجه فريد. يقف. يتابع سيره. ماذا لو كان الأعداء يكمنون لهم في الطريق؟ ماذا لو وطأ أفعى فتلتف حول ساقه. . وتلسعه؟ لا يخاف شيئاً كما يخاف الأفاعي. في صغره وجد نفسه يكاد يطأ أفعى فجمدت قدمه في الهواء. عجب أنه لا يستطيع أن يتحرك. إنها لا تتحرك. ربما ميتة. انحنى قليلاً. تطلع برأسها. قيل له يوماً إن الحية لا تموت طالما لم يُدهس رأسها. رأسها سليم. ولكنها لا تتحرك. حمل حجراً كبيراً بين يديه. رفعه. . انحنى به. . ووضعه على رأسها بسرعة. ودون أن ينتظر فحَّت بحدة وتوتر وغضب. يوم ذاك أحس بقشعريرة غريبة. شعره انتصب خشناً

متوتراً. منذ تلك البرهة بدأ يخاف الأفاعي أكثر من أي شيء آخر. ماذا إذا وطأ أفعى الآن فتفح بحدة وتوتر. وسرّه أنه سمع صوت عبد الجليل: سمعت؟

- ماذا؟

- صوت الموج!

- لا

- إصغِ.

وانحدر قليلاً إلى اليمين فتبعه. صوت الأمواج يأتي عبر المسافات والظلمة والسكون كأنين مكتوم. توقفا ريثما يصل الجميع. يسيرون بمحاذاة البحر من الآن فصاعداً. قال فريد: الطريق لم تعد وعرة.

- ولكنها أصبحت خطرة.

- لننتظرهم قبل أن نتابع السير.

عندما أنزلوا رزم البنادق إلى الأرض واستلقوا على العشب مرّ فريد بيده على كتفه يتلمس آثارها الموجعة. يود لو ينزع حذاءه وينشل المسامير التي بدأت تأكل لحم قدميه. ويسمع عبد الجليل يسأل الشباب عندما وصلوا: كيف؟

- حديد.

يستلقون على العشب أيضاً. ويقول عبد الجليل: ما أروع أن يعيش الإنسان قرب الطبيعة، بعيداً عن كل ما يسمى مدنية. المدنية خداع وكذب ونفاق. الطبيعة بساطة. أحب البساطة.

وامتعض فريد من كلام عبد الجليل وقال معلّقاً: أعجب كيف يؤمن الناس بالتهذيب. أجمل شجرة رأيتها في حياتي كانت طالعة

في قلب صخرة فوق نبع. لم تكن أمام فيلا ارستقراطية.

ـ ثم إن الناس فاسدون في هذه الأيام. ما أجمل أن نبتعد عنهم ونعيش قرب الطبيعة. لا يبدو لي الخالق إلا من خلالها.

ـ هنا، لا أوافقك.

أجاب فريد، وسكت. خالد منعزل عن الحلقة زحف نحوه وربت على كتفه: ما بك؟

ـ لا شيء.

ـ غير ممكن، ما بك؟

هز كتفه فربت عليها فريد ثانية. ألا تظن أنني أعرف؟ تفكّر بعارف؟ كان معنا في كل مغامرة. رفيقك الأول. كان يحبك كثيراً.

ـ كان يحبنا جميعاً.

وأحنى فريد رأسه دون أن ينطق بكلمة. استطاع أن يرى في الظلمة الدموع تتلألأ في عينيه. الدموع تود لو تتصاعد إلى عينيه هو: عرف كيف يموت.

وحدق بلا شيء. العالم بلا ضوء. وانتفض فجأة. خاف أن تتساقط دموعه. وضع كفه على جبهة خالد: تبكي؟ لا تنسَ أنه شهيد. نحن لا نبكي الشهداء.

ـ سبقني إلى الشهادة.

هزّته كلمات خالد. الصمت يعصف في صدره. ووقف حالاً. قال بانفعال: نمشي الآن.

اتجه نحو رزمته الكبيرة ولكن جورج كان قد سبقه إليها: خلِّها علينا هذه المرة.

ابتسم. . تلاشت ابتسامته. يعاودون السير في الطريق الوعر. مرّ في خاطره خالد وأبوه وعبد الجليل وسهيل وسامية. ظن أنه أحبها لمدة قصيرة. لماذا لم يحب في حياته؟ يشعر أنه يجهل هذا الموضوع عندما يتكلم سهيل عن مغامراته. لماذا يفكر بهذا الآن؟ من الأفضل أن يفكر كيف يتصرف في حال حدوث هجوم مفاجئ الآن مثلاً! ماذا يفعل؟ يقف. يضع يده على زناد بندقيته بحذر. وابتسم وأكمل سيره وهو يصغي لصوت الموج. مسامير حذائه تأكل لحمه. وانفجر طلقان ناريان فجأة فارتمى وراء صخرة صغيرة. جميعهم تمترسوا وراء الصخور. تابعت فوهة البندقة عينيه وهما تبحثان عن حركة أو صوت أو شبح. لا شيء. وصرخ: من أطلق النار؟

ـ أنا.

وعرف أنه صوت فارس ولكنه سأل: من أنت؟

ـ فارس.

ـ سمعت حركة هناك. ورأيت عيوناً تحدق. نهض من وراء الصخرة واتجه نحوه: أين هناك؟

ـ قرب الشجرة الكبيرة.

ـ من قال لك أن تطلق النار؟

ـ لا أحد. أنا قلت لنفسي.

وصرخ بغضب: أنا. أنا. وما هي الأوامر؟

ـ أن لا نطلق النار دون أمر.

تركه ومشى نحو الشجرة الكبيرة، ولكن الخوف بدأ يتسرب إلى قلبه. لعله كمين. ربما انطلق الرصاص عليه فجأة فسقط. وتخيل

نفسه يصاب فيرتمي إلى الأرض وتنحني عليه وجوه رفقائه، ومن بينها يرى السماء بعيدة زرقاء تتشح بغيوم بيضاء مبعثرة. يطلب منهم أن يتركوه فلا أمل له بالحياة. يصرّون. وجه عبد الجليل ينحني فوقه وتغيب السماء.

واستيقظ من خدر حلمه ليزحف. لا، لن يزحف. سيظل يمشي هكذا بتحدّ. ماذا يقولون عندما ينحني ويزحف؟ خاف. مهمته كقائد أن يقنعهم دائماً بأنه شجاع. ووصل إلى الشجرة الكبيرة. توقف وسأل: أين؟ هنا؟

ـ نعم.

وتطلع حواليه: لا شيء.

اكتفى بأن هزّ رأسه. الجميع وقفوا بصمت وترقب. وسار ببطء نحوهم. تطلع بهم وقال: نغيّر طريقنا.

وارتفعت الضحكات ولكنها انبترت فجأة، إذ رفع فريد يده بالسكوت. تابعوا سيرهم. المسامير تأكل لحمه. ظهرت لهم أضواء دير البحر. ساروا نحوها. اقتربوا.. وانهمر عليهم الرصاص. من أين؟ لا يدرون. تمترسوا وراء الصخور والأشجار والأشواك بترقب وحذر وشجاعة وصمت. الرصاص يتساقط ثانية من عدة اتجاهات. يردون على مصدره. ولكن المعركة لم تستمر أكثر من خمس دقائق. عندما توقف اطلاق النار، عاد عبد الجليل يلهث. قال إنه اقترب من صفوفهم. إنهم عدد كبير. أطلق النار في قلبهم بغزارة. حسبوه جيشاً فهربوا.

وصلوا خمسةً فقط إلى دير البحر. تسعة ماتوا، خالد أيضاً مات: أرسلوا المجاهدين الذين استيقظوا على أزيز الرصاص للبحث

عن الأجساد. خبّأوا الأسلحة القليلة التي تمكنوا من الهرب بها. تسعة. تركهم فريد وتجرجر نحو البيت. مذهول. الأزقة البلاطية مهجورة وحيدة صامتة باردة. كل شيء حدث بانخطاف. لا يصدق. تسلّق السلم الصغير ودخل على مهل إلى غرفته. الجميع نيام. تساقطوا دون انتظار. نزع حذاءه الضخم فتنهد وهو يتلمس المسامير النافرة من الداخل. برهة واحدة. ومرّ بيده على قدمه اللزجة المدماة. بكى.

- 2 -

لا شيء في الزقاق غير البلاط الجاف ووقع حذائه وقعقعة السياط وراء الطنابر وصراخ المذياع في المقهى الشعبي. توقفت المظاهرات إلى حين. زبد يتطاير فوق سطح الموج. ماذا تريد لمياء؟ من زمان لم يقل له صاحب «حانوت القناعة» إنها تريده. ترك فريد والآخرين يهرِّبون الأسلحة، وعاد حالما انتهت المفاوضات إلى دير البحر. أحس بشوق إلى ناهدة فتركهم. وهو الآن على موعد مع لمياء بدل ناهدة. هكذا أرادت هي. تلفن لها فقالت إنها لا تستطيع أن تترك البيت. ستحاول أن تراه غداً أو تكتب رسالة على الأقل. لا يريد هذا الحب البريء.

- أريد أن أراكِ الآن!

- أتظن أنني لا أتمنى. قل لي ماذا أفعل. قل لي، يا سهيل.

- أخرجي من البيت فقط. أخرجي.

- البيت مليء بالناس. لا أريد أن أختلف معها الآن.

- الناس.. الناس، وأنا ألا أعني شيئاً؟

- أناني. أراك غداً.

- أناني؟ طبعاً. عليّ أن أتأكد أن أمك لن تغضب. يجب أن أراعي أوهام الناس. من الضرورة أن نحترم شعورهم الرقيق. لا

يجوز أن نغضبهم أبداً. سأرسل لك رسالة مع ليليان.

وأغلق التلفون بغضب. أما الآن فهو هادئ، كالسلم الذي يتسلقه. يقرع الباب. هي التي فتحت. في الداخل هدوء أيضاً. توقع أن تستقبله الضجة. وما تركت له المجال كي يتساءل فقد دعته مترددة: أدخل، أدخل.

ـ كيف انتِ؟

ـ موجودة! غداً يبتدئ الصيف.

ـ وبعد ذاك تبدأ أوراق الأشجار تتساقط.

ـ سهيل!

واختلطت ضحكاتهما.. تلاشت. ارتفعت ثانية.. تلاشت. تأمل ثوبها البسيط. لا شيء يخفي طبيعتها الحارة المتوثبة. يزيد الثوب البسيط من إغرائها. تناقض جميل. وانتبه ثانية أن لا ضجة في الداخل فسأل: أين الجماعة؟

ـ لم يأتوا بعد.

وضحكت. عرفت بما يفكر. وحوَّل نظره إلى المدخنة عندما سمعها تقول: هل وجدت من يتذوق الموسيقى؟

فكّر بناهدة ولكنه قال: طبعاً، لا. الأيام الماضية لن تعود.

ـ لا يمكن أن أنساها. كم أود أن أترك هذا البلد! أيام لندن لا أنساها. الجامعات والحدائق العامة والمسارح والموسيقى والكتب والبشر، نعم البشر. نعيش في عالم بلا بشر، بلا شيء.

تطلع نحوها مبتسماً. كم تحس بالفراغ! ترى من أجل الفراغ أعطت نفسها لبحّار غريب مرة، لمجرد أنه غريب عن دير البحر؟ تراها تعتبره بحّاراً غريباً؟ وهو ألا يحس بالفراغ؟ يحاول فقط أن

ينسى. ابتسامتها شاحبة متكلفة. ويسأل مرة ثانية: أين الجماعة؟

ـ ذهبوا للسهرة عند عبد الجليل.

ـ جميعهم؟

ـ أعتقد أنني ما زلت هنا.

وأحس بالدم يتدفق من صدره. ما هذه الدعوة السافرة. ظن أن كل شيء قد انتهى. وأحس باشمئزاز، ولكن الدم يجري حاراً في عروقه. من الأفضل أن يترك. من الأفضل أن يبقى. يحس أنه ينفر منها. يحس أنه ينجذب إليها.

وجلست على المقعد المقابل برصانة. سوّت ثوبها عندما ارتفع إلى فوق ركبتيها، ولكنها وقفت بسرعة: آه، نسيت!

ـ ماذا؟

واقتربت منه. شعر أن الحواجز بدأت تنهار على نفسها بينهما. تكاد تنطلق على سجيتها. اقتربت أيضاً وقد سُرَّت أنه لم يعد يسأل عن أهلها. لا حاجة أن تمثل. إنهما وحيدان. من زمان لم ينفردا نظرت من زاويتي عينيها: عندي مفاجأة لك.

ـ لا أعتقد أنها مفاجأة.

ـ أنت سافل.

ـ سافل أم فهيم؟

ـ سافل. لا بأس أريدك أن تكون هكذا. أخطأت عندما نسيت أن تكون سافلاً.

ـ شيء..

وقاطعته: إنما أردت شيئاً آخر. عندي مفاجأة حقاً.

ماذا؟

ـ شيء يمثل منتصف القرن العشرين بصدق.

ـ صواريخ ننطلق بها إلى القمر؟

ـ عندي شيء آخر أيضاً. الوصول إلى القمر شيء مرفوض.

وفكَّر أنه يكره صراحتها. من زمان قال لها إنه يحب صراحتها أكثر من أي شيء آخر. حين ذاك أجابته «أكثر من نهدي؟». إنذهل فزادت: «ظننت أن النهد رمز لطيف لشيء سافل»، فلماذا يكره صراحتها الآن؟ ما زال الواقع يصدمه. يحتاج أن يغلف العالم بالوهم.

ـ ما رأيك بالجاز؟

ـ صرخة ضد الوهم.

ـ عندي شيء جديد.

ـ إذن نسمع. غريبة دير البحر، بعضها في القرن العشرين وبعضها في ما قبل العصر الحجري. لنسمع لنتحدَّ ما قبل العصر الحجري.

صرخ بفرح ولكن صراخه انخطف وغار في صدره. تكاد تلتصق به. الحواجز تتحطم. ضباب الوهم يشفّ. تقف بينه وبين الضوء. ظلها يترامى عليه من فوق... يغمره فيتدفق في صدره نبع حار يجرفه كحصاة صغيرة مستسلمة. أراد أن يقف ويواجهها وجهاً لوجه. ولكن الظل ابتعد وغارت الحصاة في جوف الأرض فيما هي تقول مشيرة إلى الأسطوانة: أرسلها لي صديق من لندن.

وراقبها تنحني في الزاوية تتناولها. لم ينزع عينيه من مؤخرتها. حدق بالخطوط والانحناءات والمرتفعات.

وتقف. . تقترب منه. يظلّ جالساً. يترامى ظلها عليه ويتدفق النبع الحار بغزارة. صوتها يأتي إليه كرقرقة المياه المبحوحة: لا أعتقد أنك سمعت هذه!

ويهز رأسه نفياً. لا يستطيع أن يتكلم. لاحظت الظلال تعمق في عينيه. وشعرت بأصابعه تلامس أصابعها. يحدق بها بصمت. تظاهرت كأن شيئاً لم يحدث فسألت: تسمعها؟

ـ طبعاً.

انتشلت أصابعها من كفه الحارة وسارت نحو الزاوية. توقفت فجأة عندما سمعته يقول: إنما. .

انتظرت أن يكمل ولكنه سكت فسألت: إنما ماذا؟

ـ لا شيء. لا شيء.

ـ أكيد لا شيء.

ـ أكيد.

وهزّت رأسها مبتسمة بشحوب. نجح. لم يقصد أن يقول شيئاً. أراد أن يضعها في جو من الحيرة. لا يريدها أن تسيطر. تعود إليه. يتطلع إلى صدرها. ظلها يترامى عليه وهي تسأل: هل صمّمت حقيقة أن تبقى هنا؟

ـ طبعاً.

ـ لم أعتقد أنك صبياني لهذه الدرجة.

وصعق لكلماتها. لم يكن ينتظرها. بل كان ينتظرها. وتنبّه أنها تريد أن تضعه في جو من الحيرة أيضاً. نجحتْ. ولكنه رغم هذا سيستمر. وقال مبتسماً: من سمح لك أن تتهجمي؟

ـ أعرف أنك لا تقصد ما تقول.

وقاطعها حالاً: أؤكد لك أنني أقصد ما أقول. لا يمكن أن أهرب.

ـ أما نحن فسنهرب. سنترك لك الرعاع والتقاليد المقدسة والشوارع الضيقة والحريم والأسوار حول البيت وثيابي الداخلية كي تنام معها في أيام الصيف في بلاد الوهم. سنهرب. سنهرب.

ـ وهل اقتنع أبوك؟

ـ أقنعته. من الأفضل أن أقول إنه مقتنع منذ البدء ولكنه يخاف الجماعة. يرضخ للآخرين. يخاف أن يرفض ما يريده الغير. مثل بقية الأفراد. أتظن أن أهل دير البحر سيصمدون؟ هؤلاء التجار. أحتقرهم. أنت مخدوع بهم. وافقوا على القرار العام لأنهم يخافون، لأنهم مسحوقون تحت ضغط الآخرين. لا أريد أن أسحق. لا أريد أن أخدع نفسي. لا شيء. أنت ذائب في الكائن الأكبر. أنت أيضاً تخاف. أنا أريد أن انفصل عن الكائن الأكبر. أريد أن أوجد. لا أعتقد أنك تؤمن بجدوى بقائك هنا.

ـ من قال إنني أؤمن بجدواه؟ في الغالب أننا سنموت أو نتشرد على الأقل.

ـ إذن أنت راضخ؟ ظننت أنك تستطيع أن ترفض. لم تعد مستقلاً.

ـ أنا مستقل، فأنا موقن بواجب بقائي.

ـ وما يجعلك موقناً؟

ـ على الأقل أهرب من الضجر. مللت الضجر. بي حاجة للانتماء.

ـ إلى أي شيء؟ إلى التجار والمخادعين؟ إلى أي شيء؟

ـ إلى الحقيقة. هذه أرضنا. وفيها نجوع وفيها نشبع. فيها نعيش على هامش الوجود وفيها يمكن أن نعيش في قلب الوجود. ما أدراك؟

ـ مستحيل.

ـ هذا قول غير علمي. ثم، ربما أريد أن أجابه الموت.. أن أحدق به.. أعبر في صميمه كالرمح.

ـ يبدو لي أنك تريد أن تنتحر. لا مانع عندي طالما أنك مقتنع.

وتوقف لبرهة. أن ينتحر؟ لا. يرفض الانتحار. وسمعها تعلق كأنما عرفت بما يفكر: لا تظن أن الانتحار خطأ. يتطلب جرأة. على الأقل ترفض أن تكون ذرة بلا معنى في جسم كبير. الانتحار يحتاج إلى جرأة كبيرة.

ـ الحياة تحتاج إلى جرأة أكبر. قد يكون من الصعب أن ينتحر الإنسان ولكنه من الأصعب أن يواجه الحياة. الانتحار رفض عابر، أما الحياة فرفض دائم.

ـ رفض لماذا؟

ـ رفض للموت.

وضحك. صدرها يهتز. عمَّ يتكلم؟ فرصة تضيع. وتقول: أنت مسحور بفكرة شاعرية.

ـ قد أكون. ولكن هذه الفكرة تهزّني. أن نتحدى الموت. نتحداه بيأس. هذا الشعب تافه الآن، ولكنه في السابق عبد أدونيس. لم يعبده من أجل جماله. عبد فيه الموت من أجل انبثاق الربيع.

وتوقف. إنه يعود إلى خطابه. لا يقصد ما يقول. كل ما في الأمر أنه يريد أن يهرب من الضجر. ويصغي إلى ضحكتها: كنت أعتقد أنك ملحد. أنت صوفي. وفوق هذا أصبحت واعظاً. طبعاً، عمك إبراهيم! كم كنا نسخر منه. أنت عمك إبراهيم.

ضحكت ثانية ودارت على نفسها. اقتربت منه. تطلعت بالغضب والألم يمتزجان بشعاع عينيه. سألت: طبعاً، تعرف هدى؟

ـ أعرفها. كلما أخرج من شقتي أجدها جالسة أمام بيتهم.

ـ تتطلع بك بإغراء؟

ـ تحاول. لا تغريني.

وهزت لمياء رأسها بتأمل: لا تغريك؟ غريب! لا أصدق! كيف تغريك دير البحر، إذن؟

ـ لا أرى العلاقة.

ـ هدى رمز لدير البحر. إنها دير البحر. تاجرة. تعطي نفسها لكل بحّار. تستقبل كل غريب. لا تأخذ غير حقارته.

وأراد أن يقول لها «إنما أغرتك مرة بأن تكوني صديقتها» ولكنه امتنع. لا يريد أن يفسد لقاءهما. ابتسم وقال بهدوء: ولكنك تتجاهلين الجانب الجميل من دير البحر. تنسين ما هو أهم، الحقيقة. من حقنا أن نعيش في أرضنا. إنها لنا.

وشعر أن كلامه بارد. توقف. يجادلها لأنه يخاف أن يقترب من جسدها. وقال فجأة: نسمع جاز الآن؟

ـ طبعاً آسفة.

تسير نحو «البك أب» في الزاوية. تنحني. يحدق بالخطوط والانحناءات والمرتفعات. الدم يتدفق في صدره ووجهه. الأسطوانة

تدور. مثلها نبضات قلبه تدور. ويرتفع صوت البوق، فترتفع هي. تلاشت الخطوط والانحناءات والمرتفعات. تجلس على المقعد المقابل. تسوّي ثوبها وتصغي.

يشير لها أن تجلس قربه فتشير إليه أن يجلس قربها. ودون تردد يقترب منها فيقع ظله عليها ويحس أنها بدأت تضطرب. وتقول كي تشغله عن اضطرابها: نسمع الجاز في هذا البلد، من يصدق؟ لست مغرورة، ولكنني أشعر أن قروناً تفصلني عن الشعب. كيف يمكن أن أشعر بالانتماء؟ لا أريد أن أحدق بالموت. أريد أن أحدق بالحياة. . أن أعبر صميمها كالسهم.

لا يجيب. يصغي إلى شيء آخر. وتشير له أن يجلس. تتطلع بالسقف محركة قدميها مع تموجات الموسيقى. تمثّل. ولماذا لا يمثّل هو أيضاً؟ قال: موسيقى الجاز ليست في الحقيقة عملاً صبيانياً.

- إنها عمل شهواني.

أجابت بسخرية فعلّق برصانة مفتعلة: ليست عملاً شهوانياً بحتاً، وإلا كانت عملاً صبيانياً. هي تعبير صادق عن التوتر والحيرة والغضب والحنين، طبعاً في حياة المجتمعات المعقدة.

- نسيت الضجر والموت والتحدي والزمان.

ضحك. سكت. قلبه يدق. موسقى مبحوحة تشرق من بعيد. ترتفع في سمائه. . ترتفع. يقترب منها. تقترب منه. كتفاها يتحركان بهدوء، وعيناها تغرزان في عينيه. تمتد يداها نحوه. فيجذبها إليه غير أنها تظل بعيدة. يفهم. هذه هي مشكلتها. يزداد غروراً وابتعاداً. جسدها يحرقه. يقف وينحني: ترقصين؟

تنهض. يتناول يدها اليمنى. يظل بعيداً يفكر أنها كبرت. يتأمل الشعرات البيضاء في رأسها. يصبحان جزءاً من تيار الموسيقى. يحس أنها تقترب. يبتعد أيضاً. . فتقترب، ويجذبها فجأة إليه. . لكنها تبتعد. يحدق في عينيها، وتحدق في عينيه. هي أيضاً تفهمه. يقتربان. . يقتربان. تلتصق بصدره. يدور بها بسرعة فيختطفها من أفكارها. رأسها ينحني نحوه. تنجرف في تياره الدافئ. يرتمي هو في عالمها كورقة يابسة تتلاعب فيها الريح كيفما شاءت. الغيوم نتفٌ صغيرة في السماء. غداً تمطر. تلتصق بصدره أكثر فأكثر. يحبك أصابعه بأصابعها، وساقيه بساقيها. صدرها ينبض في صدره. وجهها يلامس وجهه. لم يعد يدور. يتحركان على مهل في مكانهما. ولامس ذقنها الأسمر الدقيق بسبّابته فارتفعت شفتاها المكتنزتان إليه. كأنه يشرف على واد عميق. لو يغرق فيه. يلقي يده اليمنى على خصرها. يفكر أنها امرأة حقاً. ردفاها نافران. يطوق خصرها. لا تعرف يده أين تستقر. تهبط من جديد إلى خصرها. تمتد يده تحت الجرسيه. يتمسك بلحمها الذي يكاد يتهدل. وأرادت أن تهرب من أصابعه فالتصقت به. تهبط شفتاه نحو شفتيها. تتلامس. . تتداعب. . تتمرغ بسرعة وغضب. تطول القبلة. يتلقّط بشفتها السفلى. . يقضمها. . يلاحقها من الزاوية إلى الزاوية. يتلقّط بالشفة العليا. . يقضمها. . يلاحقها من الزاوية إلى الزاوية. يهبط فمه إلى عنقها. جسدها يلتصق بجسده. . يعبر عنقها زحفاً على شفتيه. . يقضم ذقنها. تهبط يداه إلى جنبيها. يرفع ثوبها. . يرفعه. . يداعب اللحم الناعم برؤوس أصابعه. صدره يغرق في صدرها. يداعب اللحم برؤوس أصابعه. تحاول أن تهرب. يهبطان. . يهبطان. يسجدان على الأرض للشهوة. يسمعها تتمتم: سهيل، أحبك.

قبلني. أحبك.

ترتفع شفتاها إلى ما وراء أذنه.. تتمتم ثانية: أحبك. قبلني.

لا يجيب أيضاً. تترك أصابعه فخذيها. يحاول أن يجردها من الجرسيه فتساعده. يرفعها إلى فوق.. ترتفع يداها معها. يرمي الجرسيه إلى الوراء. ترتمي ذراعاها على كتفيه. يفكفك أزرار ثوبها من الوراء: أحبك.

في عينيها بريق غريب. فيهما نبع من الضوء يغور. شفتها السفلى تتدلى مثقلة بالشهوة. وتنخطف يداه نحو شروق نهديها. يواجهانه كالرمح.. يتحديانه كالموجة. أيها الزبد الأحمر. لم يتهدلا بعد. تغطّ شفتاه على الحلمة الأولى.. تطيران إلى الثانية، ثم إلى العنق.. تعودان إلى النبعين الفائضين بالحياة. يطل يحوم حول النبعين.. يغط.. ينقر.. يطير قليلا ليعود.

ـ أحبك.

يخرج صوتها مبحوحاً متأوهاً كالريح في أودية ضيقة. وعندما لا يجيبها يرتفع صوتها في أذنيه حاداً. يتغير فجأة: مابكَ؟

ـ لا شيء.

ـ طبعاً لا شيء. لماذا لا تجيب؟

ـ أجيب على ماذا؟

وتلتمع عيناها بالغضب: قلت أحبك.

ـ أنت لا تقصدين هذا.

وتدفعه عنها بغضب وكبرياء: ومن تظنني؟ أتظن أنني كنت أسمح لك أن تمسني لولا أنني أحبك. أنت تعرف أنني أحبك. ولذلك تتكبر. أنت بحاجة إلى امرأة تكذب وتتظاهر وتتكلف. عند

ذاك ترتمي على قدميها. ليتني لم أقل لك هذه الكلمة. إنك لا تستحقها. مزيف كالآخرين. تعيش داخل عالم من القشور. تريد المرأة نعجة تخضع، وبلا خطأ.

وتدير رأسها نحو المقعد. وضع يده على شعرها: لمياء، أرجوك. حاولي أن تفهمي.

ـ أن أفهم؟ في حياتي لم أفهمك. أنت غريب. غريب. أنت مثاليّ تستعبدك فكرة شعرية، وأنت واقعي لا يهمك من المرأة إلا أن تنام معها.

ويجلس على طرف المقعد. يتأملها حائراً. لم يكن ينتظر أن تواجهه بهذا العنف. إنها تبكي. اجتاحه شعور بالذنب. لم يفكر قبل الآن إلا أنها شهوانية. إنها تؤمن بالحب على الأقل. ومن أجله تعرف كيف ترفض.

اقترب. كادت يده تلامس شعرها المرتجف ولكنها توقفت. من الأفضل أن يتركها الآن. لا يمكن أن يقول لها بأنه يحبها. فتاة ثانية سبقتها إلى قلبه.

ومشى نحو الباب. توقف وقال بهدوء: لمياء، سنتكلم في المستقبل.

ورآها ترفع رأسها بتمرد: ولماذا في المستقبل؟ تخاف مواجهة الحقيقة؟ قل إنك لا تحبني. هل تظنّني أموت؟ لست من المعجبين بالموت. أتظنني اختبئ وراء كلمات كبيرة، فارغة، برّاقة؟ أنت تعيش في دوامة من الأوهام والكذب.

فتح الباب بهدوء ودفعه وراءه. العالم في الخارج هادئ مثل نقيطات المطر الربيعي التي اخذت تتساقط على مهل. إذن هو كذاب

مثل الآخرين، وتافه. من أجل أن يكون صادقاً مع نفسه، كفر بمعظم ما يؤمن به الناس. الصدق كان ملجأه الوحيد. وفي برهة أدرك أنه بلا ملجأ.

لا يريد أن ينام. أيتها الغيمة السوداء. أزيز رصاص بعيد. لماذا لا يهرب؟ سيهرب غداً. إنه يخدع نفسه. مسحوق تحت ضغط الآخرين. يبقى لأنهم يريدونه أن يبقى. تريد أن تفهم دير البحر؟ هدى رمز لدير البحر. لا جذور لك فيها. تموت من أجل هدى؟ بل يموت من أجل فريد! فريد عنده جوهر. إنه كريم، نبيل، محب، صادق. لماذا لا يكون فريد رمزاً لدير البحر؟ يبدو أنه بدأ يبرر فشله ويتجاهل أنه مخدوع. فريد متحمس متهور. لا قواعد يرتكز عليها. مخدوع لا يريد أن يخدع. غداً يهرب. لا يريد أن ينام. أيتها الغيمة السوداء. أزيز الرصاص بعيد. إنه بلا ملجأ.



اليوم الثالث

- 1 -

أبواب الحوانيت والمتاجر تنغلق في الشوارع الضيقة فتتجاوب أصواتها الحديدية الجافة. موكب الموت سيمر بعد نصف ساعة في وسط دير البحر. لأول مرة يشاهد سهيل تسعة نعوش تُحمل معاً. الناس يتجمعون على الرصيف ليتفرجوا على الموت. هو مثلهم سيتفرج على الموت. كان نائماً بعد مغامرته مع لمياء عندما كان اصدقاؤه يواجهون الموت. بعد ذلك فكر أن يهرب. لقد لامست أصابع لمياء الوتر المجهول في نفسه. لم يعرف حتى الصباح أن تسعة منهم قد استشهدوا. الخشوع يملأ الوجوه. الرهبة تملأ العيون. ويقف على الرصيف ينتظر موكب الموت. مثل بلاط الرصيف ينتظر، مثل ذلك الذي يلعب هناك وكأن شيئاً لا يحدث في العالم. منذ برهة مرت في باله ناهدة، فتمنى أن يصادفها هنا وأن لا تكون ليليان قد سلّمتها الرسالة. لماذا كتبها؟ لماذا يقف على الرصيف؟ ماذا يفعل؟ ينتظر ليتفرج على الموت. تركهم يحملون الأسلحة في الجبال الوعرة وجاء باكراً إلى دير البحر ليرى ناهدة.. يعيش مع جسد لمياء.. يفكر بالهرب.

وسمع صوتاً مبحوحاً يصرخ بالناس أن يذهبوا لملاقاتهم في أول البلد. ويظل يحدق بمصدر الصوت. عجوز يتجرجر على عصاه. سرواله العتيق يتجرجر معه كذلك. وجهه الأسمر مكتنز

بالتجاعيد وشارباه كثيفان مغبّران. إن لدير البحر وجهاً. الجذور تغور في الأرض. يمشي مع الناس. في بحة صوته عالم غريب من الحنان والمحبة. يحس كأنما جسده يتقلص ويرتجف ويبرد فينتصب شعر جسده، كأن تياراً حرّك وجوده. لا شيء يفصله عن العالم الآن. إنه ملتصق بالرصيف والناس والموت وعصاة الرجل العجوز ووجهه المكتنز بالتجاعيد. جذور الضجر واليأس تنقلع من تراب صدره. تحت ركامات الموت في هذا الشعب انتفاضة حياة رائعة من ضمنها يمكن أن يُخلقوا من جديد. تراه يقصد ما قال عن نعمة الموت؟ والد حبيبته كان أول من أعاد الثقة إلى نفسه. الموت يحرّك وجوده ويزلزل أعماقه فتتشقق القشرة السميكة التي تفصل بينه وبين الآخرين. تراه ينسى شوارع بلاده المليئة بالعفن والأصنام، والوجوه المبتسمة بفراغ، والبطون المندلقة إلى الأمام، والرؤوس المقبوضة بالخرافة والوهم؟ ينسى التجار وهدى؟

ويسير على مهل. الناس يتحدثون عن بطولة فريد. كيف نزع الخوف من صدور المجاهدين فتدفقوا إلى الموت واستشهدوا ببطولة. يعرفهم واحداً واحداً. الموت يعصف به. الأفكار والمشاعر تيارات تتداخل وتنجرف في أغواره تحمله معها كما تحمل ورقة يابسة. ليته لم يعرفهم. لماذا ليته لم يعرفهم؟ ليهرب من رهبة الموت؟ خالد قبل أمس كان يدربه على استعمال الرشاش. وتراءى له يركض ويرتمي في حفرة تطل على الوادي الجنوبي. ترتفع في أذنيه ضحكاته وهو يروي حادثة طريفة.

يسير مع جموع الناس المتدفقة بصمت نحو أول البلد. عبد الجليل مهموك يروح ويجيء. يريد كل إنسان أن يراه. يقتربون من الموت. يقتربون من البحر. الغيوم تتصاعد إلى قلب السماء. غداً

تمطر. هذه الوجوه غيرها في اي وقت آخر. إنها هادئة شاحبة متأملة يغمرها الحزن المغسول بملح البحر، الصاعد مع الغيم إلى قلب السماء، الهابط مع المطر إلى جذور الأرض. المعاني تصطخب فيها بهدوء. إنها تلتصق بالضمائر. تُرى، أيرى ناهدة فجأة بين الجموع؟ كيف يكون وجهها؟ لا يود أن يراها. يود لو يراها. أصوات تتجاوب في هيكل صدره، وفي وجوه الناس حوله. وعجب أنها تؤثر به.. تمس شيئاً مجهولاً في ادغال وجوده؟ لا يستطيع أن يهرب من ثقافته. تعلّم أن يحس بمسؤولية تجاه العالم! لماذا؟ هل يستحق؟ كذلك تعلّم أن يعيش بانحلال. ويرتفع صوت من أصوات المجاهدين يجلجل ثانية: صفوف إلى جانبي الطريق.

وبدأ الناس يصطفون. فؤاد وعبد الجليل في الصف المقابل. عبد الجليل ما زال يحمل بندقيته يروح ويجيء. الصفوف تنمو وتمتد. ويرتفع الصوت: لا تتركوا الصفوف حتى يمر الموكب.

وتبدو طلائع الموكب. فرقة من المجاهدين تتقدم بسلاحها الكامل. ما زالوا في لباس المعركة. البنادق ترتفع بكبرياء، والرصاص يلف الصدور. نبضات قلبه تسرع. عيونهم تحدق في البعيد. لا شك في آفاقها، مؤمنة مصممة مقاتلة. لا يرى عيني نفسه. إنها بلا ضجر على الأقل. تتطلعان بالموكب. أكاليل تتقدم خطوطاً بعيدة. فرقة ثانية من المجاهدين تطل. البنادق ترتفع بكبرياء، والرصاص يلف الصدور. ايدي الناس مسبلة كالبنادق والعيون تبرق كالرصاص. أكاليل جديدة تتقدم خطوطاً بعيدة. رجال الدين. أطل النعش الأول يرتفع على الأيدي. من هو؟ لا يدري. النعش الثاني. النعش الثالث.

رعشة في صدره. جسده يقشعر. شيء ما يخطو في قلبه

وعروق صدره وحلقه. غيمة تتصاعد إلى سماء عينيه. حلقه ينقبض. النعش الرابع يظهر. النعش الخامس فالسادس، وتبرق الدموع في زوايا عينيه. تنحدر ببطء وهدوء.. تنحدر بسرعة. يداه مسبلتان. جبهته تنحني. التراب بلون الغيوم. يطل النعش السابع فالثامن فالتاسع.

تنهمر دموعه.. تلتصق بخديه وجفونه وولولة النساء على الشرفات ووجوده البعيد الدافئ. قلبه يهبط إلى عالم سحيق غائم في صدره. النعوش ترتفع نحو ولولة النساء.. تهبط، ترتفعُ.. تهبط، وتميل إلى اليمين.. تميل إلى اليسار. ثم ترتفع إلى الزهور المترامية من الشرفات والنوافذ والسطوح.. تهبط.

وتسير صفوف الناس خلف النعوش. رؤوس منحنية بصمت، والأقدام تترامى على التراب بألم. وبغير انتظام. يسير معهم متألّماً ويود لو يسير بانتظام. عقربا الساعة لا يتحركان.

مال الموكب نحو الهضبة الجنوبية. سار في الزقاق الضيق. توقف. وصلوا إلى المقبرة. مكان جديد لم يُدفن به أحد من قبل. هذه التلة للشهداء فقط. العالم هادئ مثل سنابل القمح المليئة بالحبوب. ويغمض عينيه. ينفصل عن كل شيء. يتحد بكل شيء. ليته..

ـ أيها الشهداء.

والتفت إلى حيث ارتفع النداء. فريد يقف على صخرة صغيرة تشرف على الناس والقبور. يحيط به عدد من وجهاء البلدة. بينهم عبد الجليل. برهة من الصمت تمر قبل أن يرتفع الصوت ثانية متقطعاً، مخنوقاً، متوثباً. أيها المجاهدون. أيتها البطولة التي

انتصرت على الموت، إننا هنا نحتفل بانتصاركم.

وينطلق الرصاص متتابعاً من رشاش: رصاصة. اثنتان.. ثلاث.. أربع.. خمس.. ست.. سبع.. ثماني.. تسع.. فتجاوب اصداؤها الرهيبة في الوادي وصدور الناس. رهبة غريبة ترتفع في أعماقه وتتوثب فجأة بلهفة عندما ينطلق الرصاص رشاً فينجرف في تيار يرتفع به.. يهبط. وتتوقف الطلقات فيتتبع اصداءها البعيدة التي تخفت.. تخفت.. لا تتلاشى. أنين مكتوم يقبل من فوق البحر.

أيها الشهداء، أنتم البرهان الأكيد على أننا نستطيع أن ننتصر. فينا من يعرف كيف يموت ببطولة. واسمى ما يمكن أن نعاهدكم عليه أننا سنخوض المعركة الأخيرة مهما كان الثمن.

وينطلق الرصاص: رصاصة.. اثنتان.. ثلاث.. أربع.. خمس.. ست.. سبع.. ثماني.. تسع. ثم رشّاً يجرفه في تيار يرتفع به.. يرتفع ويهبط فجأة عندما تتوقف الطلقات فيتتبع أصداءها البعيدة تخفت.. تخفت.. لا تتلاشى.

ويرتفع صوت فريد: أنتم تعبير رائع عن الحرية فقد تحررتم من الأنانية وانطلقتم إلى قمة الإنسان فينا.

وأدرك سهيل أنه لم يكن يصغي. يلاحق أفكاره المتشابكة ويجد أنه يشقّ طريقه بهدوء بين كتل الناس. داس قدماً حافية. صرخ.

ـ آسف.

لا يدري إلى أين. يريد أن يبتعد فقط. لماذا يحس بالضياع كلما وجد نفسه يسمع خطاباً؟ لماذا ينفر؟ أنه يكره أن يضيع في الجموع. وأسرع عندما اخترق الكتل البشرية. لماذا يسرع؟ لا

يدري. يحس أحياناً بشوق إلى الضجر. لا يستيطع أن يعيش بلا ضجر. لا يستطيع أن يعيش مع الضجر. الرصاص ينطلق متتابعاً فتتجاوب الأصداء في الوادي وهيكل صدره.

يسرع لا يدري إلى أين. عقربا الساعة لا يتحركان.

ـ 2 ـ

ـ أي شيء ينقصكِ؟ أريد أن اعرف. قولي.

لم تردّ ناهدة على أمها. عادت تصغي للموسيقى بألم هادئ. لا تستطيع أن تتكلم. عالمها ضيق. جدران سميكة تشرنقها. صور أبيها المعلقة على الجدران تشرف عليها أينما جلست. الناس يريدونها أن تكون قديسة لأن اباها عرف كيف يموت من أجل بلاده ويستولي على مشاعر الناس. أصبح في نظرهم رمزاً للبطولة والتضحية والرصانة وأشياء أخرى لم تخطر بباله. لا تستيطع أن تؤمن بما يريدونها أن تؤمن به. حاولت ولكنها فشلت. ليس بامكانها أن تكون قديسة. متى تفهم أمها؟ متى يفهم الناس؟ على العكس إنها تنفر من كل ذلك دون أن تدري. يبدو أنها بدأت تعتنق أفكاراً غريبة تتناقض مع دينها وأسس تربيتها. الأشياء التي استشهد أبوها من أجلها لا تعني لها شيئاً. تكرهها دون أن تدري لماذا.

وأحست بالموسيقى تتمرد بعنف فغمرتها موجة تجرفها. حتى الآن لم تستطع حقيقة أن تتمرد أو ترفض رغم أنها اقتنعت بأن تتمرد وتغضب وترفض. أقل ما يمكن أن تفعله هو أن تستمع للموسيقى كما تريد.

اللحن يدور على نفسه.. يدور وينطلق فجأة في الأفق البعيد،

ثم يبدأ بالتلاشي. وتحني رأسها على مهل حتى تلامس جبهتها سطح الطاولة الرخامي. تبكي. سهيل، لماذا تتركني وحدي؟ إنني بلا أجنحة. حسبتك ستستمر في حصار أسوار بيتنا حتى تتهدم فأخرج إليك وارتمي على صدرك مثل قميصك.. أرتمي على قدميك مثل شريط حذائك أيها الفاتح الكبير. دع جنودك يقدمونني إليك قرباناً.

ويخفق صدرها بالبكاء. ترفع رأسها عن الرخام البارد فجأة وتعود للإصغاء. في الموسيقى عاصفة وأمطار وأغصان تتكسر في وجه المطر والريح.. تتكلخ وترتمي على الأرض.

وتترك يدها تترامى.. تمتد إلى رسالته. تقرأها من جديد:

أتساءل إذا كان الضجر يلفني الآن حتى في هذه الفترة التي تعاني فيها بلادنا أزمة تتحدى وجودنا كأنما تمتحن طاقتنا على الاستجابة.

ناهدة، أحتاج إليك. أحتاج أن أجلس في ظل عينيك فتمطر عليّ سماؤها ويموت اللهب والجفاف في صحرائي. كنت أعتقد أن الحب سيخفّف آلامي فاذا به يفجّرها. كأني زورق بلا شراع أو دفة. الأمواج تتقاذفه.. تلطمه.. ترفعه.. تهبط به دون أن يبرح مكانه. الشاطئ تلاشى والزورق في آلامه يصلي للموت. إنه المنقذ الأكبر. أريد أن اتفرس في عينيه واعبره كالسهم.

أملكِ تغلق النوافذ على حياتنا فتقبعين وراء النوافذ. كان الأحرى بكِ أن تحطميها. يؤلمني أن تستسلمي لهذه الإرادة التي تستبد بمصيرنا. ألححت أن أراك ليس دون سبب. تذكرين ما تحدثنا به على الطريق الشمالية بأننا ننفعل بأشياء سطحية ونتجادل حولها. لا

أريد أن يكون حبنا تلهياً بأشياء صغيرة. تأملي أنني أكتب رسائل. تأملي أن تكون مشكلتنا أنك لا تستطيعين الخروج من وراء اسوار بيتك. لم تنزعي الحجاب. . الحائط أصبح حجاباً.

ناهدة سأحاول أن لا أراكِ.

الحب يريدني أن أقول كلمة قد تصدمك أولاً. ولكن هذه الصدمة لن تطول. لا أريد أن اعذبك بعد الآن. باسم هذا الحب أطلب منك أن تنسي كل شيء. لا حاجة أن تجيبي على هذه الرسالة.

(سهيل)

واقترب فمها من اسمه. طوت الرسالة فجأة وتراكضت إلى الخارج. يجب أن تراه. لن تعود إلى البيت قبل أن تراه.

ـ ناهدة!

سمعت صوت أمها يناديها بحدة ولكنها لم تلتفت. أسرعت في سيرها. التفتت إلى الوراء أمها ما زالت تتبعها. توقفت تحدق بها، ثم بالحائط المرتفع الذي يفصل التلة عن الطريق. اتجهت إليه. تنتظر أن تقترب. تطلّعت من فوق الحائط إلى تحت. وعندما اقتربت. صرخت بأمها: أتركيني. إرجعي إلى البيت.

ـ ما بك؟ إلى أين؟

ـ قلت لك ارجعي إلى البيت.

ـ ناهدة، ما بك؟

وصرخت بتحدّ: ما بي؟ أريد أن أرى سهيل.

ـ جننت؟

سألتها أمها بحنق وقد انصدمت بصراحتها. هي أيضاً أجابت بحنق:

ـ نعم جننت. لا تقتربي مني. أرمي نفسي أن اقتربتِ.

واقتربت الأم فصرخت بصوت عالٍ: قلت لك أرمي نفسي.

وتقف عندما رأتها تقترب من حافة الحائط. تحاول أن تمسح الغضب من وجهها فتقول بلطف: ناهدة، كوني عاقلة.

ـ لا أريد أن اكون عاقلة. أتركيني، أتركيني.

ـ ناهدة، بنتي.

أحنت الأم رأسها وتراجعت إلى الوراء قائلة بترجّ أنتظرك في البيت. أرجوك. بنتي. لم أعد أتحمل. تعذبت كثيراً. من أجل أبيك، عودي.

وتعود ناهدة تتسلق التلة حتى اشرفت على الناحية الأخرى. بعض المجاهدين يتدربون. اقتربت. سهيل ليس بينهم. ورآها فريد فأسرع نحوها ليقف أمامها باحترام. وسألته عن سهيل، فطفح وجهه بالاحمرار. لم يكن ينتظر أن تسأله بمثل هذه الصراحة. رائعة أن تكون صريحة. كم عاشت وراء ستائر الزيف. وغمرتها موجة من رضى.

ـ سهيل ليس هنا. لم أره بعد الدفن.

وزاد شعورها بالرضى عندما قالت: أريد أن أراه.

ـ سأخبره ساعة يأتي. لا بد أن يأتي.

أرادت أن تقول شيئاً ولكنها استسلمت لصمت شعرت أنه سيطول. لا تريد أن تتكلم. لا تريد أن تعود إلى البيت. لا تريد أن تبقى هنا. ولم تشعر أنها بدأت تمشي نحو الممر الترابي الضيق. استندت إلى شجرة السنديان. لو تستند إلى كتفه فيحمل رأسها

المليء بالألم: سهيل، سهيل، أرجوك انقذني. قل لي ما أفعل، فقط قل لي. تريدني أن انزع ثيابي هنا وأواجه أمي والحجارة والعالم عارية؟ قل لي فقط، فأفعل إذا أردت. أعدك أن أمزق كل ما حاكت العناكب حولي من خيوط. سأواجه أمي والأشجار والحجارة والشمس عارية. أرجوك، سهيل. سأهدم الحائط عن وجهي.

وأحسّت بتيار دافئ يتصاعد من صدرها. يصطدم بغصة في حلقها. عنقها يضطرب. التيار الدافئ يتيه في سماء عينيها. الدموع الحارة تسيل على خديها. لا تمسحها. لتنساب أينما أرادت. . إلى زوايا فمها، إلى ذقنها وعنقها. لتنساب أينما أرادت. نشوة غريبة تلفها. رائع أن تستسلم إلى دموعها وتعذّب نفسها. سهيل، حبيبي.

وحلمت أنها سقطت إلى اسفل فارتطمت بالصخور والأشجار والأشواك. سيارة تنقلها إلى المستشفى، ويأتي هو حاملاً باقة من الزهور البرية. لا تبتسم. يظل وجهها بحيرة تتأمل العالم بهدوء. يقترب منها. ولكنها تظل تحدق بالحائط. يقترب منها. يتأمل الضمادات حول رأسها، ثم يجلس بهدوء كبحيرة في وجهها. يضع باقة الزهور البرية على فراشها ويحني رأسه مراقباً أصابعه. تحتبك بعضها ببعض كنهر مضطرب. تسقط باقة الزهور البرية على الأرض. ينحني. يلتقطها. يضعها على الفراش ويقول بانفعال وتدفق: ناهدة، آسف. كان يجب أن تعرفي أنني لم أقصد ما كتبت. كان يجب أن تعرفي. كان يجب أن تعرفي.

ويهدأ فجأة. يتأمل عينيها. يقترب: ناهدة، أرجوك بنتي، أرجوك.

إنه صوت أمها. لا تلتفت. عالم الحلم ضاع. خطواتها تقترب منها بهدوء وترجّ: ناهدة بنتي، تعالي.

لا تلتفت. تحس بيدها تلقى على كتفها: ناهدة، تعالي معي. تعالي قبل أن يرانا أحد. لسنا بحاجة إلى فضيحة.

ـ فضيحة؟

تصرخ ناهدة بتمرد. تهدأ. يرتفع صوتها مرة أخرى: أنا بحاجة إلى فضيحة. أريد أن أتحدى كل هؤلاء الناس. أكره العناكب. أكرهها.

ـ وأنا أكرهها. لنتكلم في البيت.

ـ لا. نتكلم هنا. تخافين كلام الناس؟

ـ أخاف عليك.

ـ نعم، نعم، شيء طبيعي جداً.

قالت بسخرية ولكنها عادت إلى غضبها: تخافين عليّ، آه؟ أنت تخافين أن يقول الناس إن ابنة الزعيم الشهيد إبراهيم العامري قد وقعت بالحب يا للعار! يا للعار! أنت عشت كما أرادك الناس أن تعيشي. لماذا لم تتزوجيه؟ وفاء لشبح أبي؟ طبعاً، الناس لن يقبلوا هذه الفكرة. كيف يمكن أن تتزوجي؟ أبوك لم يرض. وهو أما تزوج امرأة لم يعرفها قبل أن نام معها؟

ـ كفى. . كفى.

لم تنتظر من نفسها أن تكلمها بهذه الصراحة فصعقت. رغم هذا استمرت في ثورتها: نعم، لم يرها قبل أن ينام معها. سلالة عبيد. سلالة عبيد

ـ أسكتي. . أسكتي. هل جننت؟

ـ ماما، أرجوك أن تفهمي.

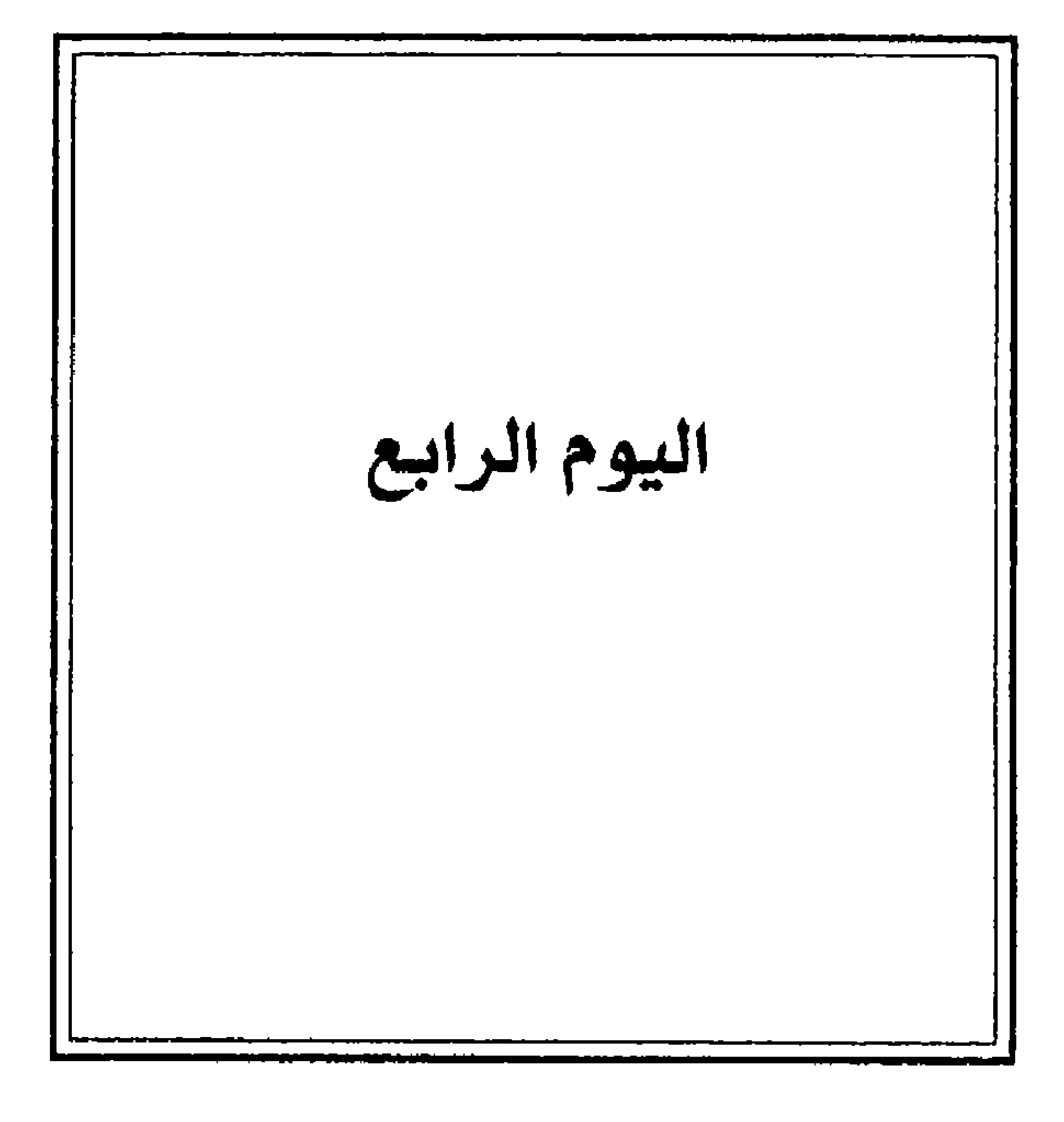
لا تدري لماذا تغير صوتها فجأة. من أين الحنان والترجي والمحبة؟ عادت معها إلى البيت وارتمت على صدرها باكية: أرجوك أن تفهمي. آسفة. حياتي لي. أريد أن أحياها. أريد أن أحياها أنا.

واستسلمت لصدر أمها. العالم هادئ مثل السماء. صدر أمها يرتجف. وتسأل بحنان: ماما، يجب أن ارى ليليان.

ـ الآن؟

ـ نعم، الآن.

وتسكت. لا تجيب. تنفصل عن الصدر المرتجف وتبتعد. مشت نحو البوابة الحديدية. فتحتها بهدوء. أصغت لصوتها الصدئ. تركتها مفتوحة. تأملت شعاع الشمس حيث يلتقي بالظل داخل الحديقة وعادت تسير نحو بيت ليليان.



اليوم الرابع

ـ 1 ـ

أوصلتها ليليان حتى منزلها العتيق في بساتين الليمون قرب البحر وتركتها. تكاد لا تصدق أن سهيل ينتظرها في هذا المكان المنعزل، وأنها تسير إليه بحرية. كانت قد التفتت إلى ليليان تسأل من جديد: أين كان أمس؟ لم تصدق أمي أني لم أره.

وامتزجت ضحكاتهما. أما الآن فتسير وحيدة. قد تتغير حياتها في هذا اللقاء. وشعرت بالخوف. كانت قد سألتها ليليان: هل يحرمنا الأعداء من رائحة الليمون؟

ـ لا أعتقد.

بعدُ، لم تتفلت من خيوط أفكارها التي تُنسج حولها. الخوف ينمو. توقفت. مسحت العرق عن ذراعيها وعنقها. لا تدري ما بها. إنها ترتجف. كانت ليليان قد قالت لها: أرى أن تهربوا.

ـ أودّ لو يقتنع.

ـ يواجهون المستحيل. حاولي اقناعه. حاولي. نحن سنذهب بعد غد.

لماذا تفكر بليليان؟ تتشاغل عن نفسها؟ تود لو تعود إلى حالتها الطبيعية وتواجه سهيل وكأن شيئاً لا يقلقها. ليحدث ما يحدث. وتحاول أن تسيطر على أحاسيسها.

ـ طبعاً، لن يقر بالواقع.

ـ حتى المؤمنين يتكلمون عن الواقع؟

ـ الواقع بالنسبة إليك ترابي.

ـ التراب رائع.

ـ لديك فكرة خاطئة عن الإيمان.

ورأته من بعيد يستند إلى إحدى شجرات الليمون المحيط بمنزل عتيق. تدفق الدم إلى وجهها. أحنت رأسها إلى التراب.

- I did not know you were so much influenced by him!

ـ What is wrong with that? خطأكِ أنك لم تتأثري به!

ـ لا أريد لن اكون Skeptic.

يتطلع إليها مبتسماً ويقول: مرحباً.

ـ مرحباً.

وأشار إلى مقعد تحت إحدى شجرات الليمون فمشت إليه دون أن تجد ما تقول. وجاءها صوته حزيناً: آسف للرسالة!

ـ Forget it

ابتسم. سارا نحو المقعد. جلسا. كان قد جاء إلى هنا منذ عشر دقائق. لو لم يأت قبل الوقت لوصل مضطرباً. امتلأت دير البحر بالضجيج منذ الصباح. كانت الشوارع تعج بالمتظاهرين. حرقوا عدة بيوت هرب أصحابها في الليل. بيت لمياء حرق أيضاً. ما كان يجب أن يقف في المتظاهرين ويرد على عبد الجليل وفريد. لقد خذلوه. عبد الجليل كلّمهم بلسانهم وأفكارهم. قال لهم:

«لن نتساهل في هذا الأمر وإلا سنستفيق كل يوم لنجد أن عدداً

كبيراً من سكان دير البحر قد هرب. الناس يهربون، ليس لأنهم جبناء بل لأنهم يريدون أن يبتعدوا بأطفالهم ونسائهم عن الخطر. ثم إن الهرب يشجع الهرب. لا أعتقد أن واحداً بينكم يجب أن يشجع الناس على الهرب».

لم تكن آراء فريد مختلفة. لماذا وقف هو وقال: «لا أستطيع إلا أن أعجب بكم. فليس شيئاً صغيراً أن نقرر الصمود في وجه الموت.. نتفرس به بقوة وكبرياء وعنف فنصرعه. نحن اخترنا هذه المعركة، لذلك لا نريد أن نجر الضعفاء إليها جراً. الأعمال الكبيرة تتدفق من الأعماق بحرية. لذلك أرجو ألا نرتكب خطأ احراق البيوت مرة ثانية. إنها بيوتنا، على كل حال».

وصفق له الناس غير أن عبد الجليل عاد وخطب بهم فانجرفوا وراءه. وجد حاله وحيداً. عقربا الساعة الكبيرة لا يتحركان. وقذف بنفسه في الأوتوبيس يتلمس مفتاح البيت الذي اعطته اياه ليليان. امتلأت السيارة بالركاب ولكن السائق ظل يقف في وسط الطريق ليطلع راكباً بعد الآخر. امتلأت الممرات والزوايا. انحجبت عنه السماء. بلا أفق. رائحة العرق تملأ أنفه ورئتيه. تطلع إلى السائق في المرآة. وجهه متكالب. القرش كل حياته. من أجله يأكل ويشرب وينام مع زوجته. لا يهمه أن ينزعج الناس. الراكب في نظره عشرة قروش لا غير. مجرد وسيلة ينقلها من طرق البلدة الشرقي حتى الميناء ليستطيع أن يأكل ويشرب وينام مع زوجته. وقذف نفسه خارج السيارة عندما وقف السائق لينتشل عشرة قروش أخرى عن جانب الطريق. وصرخ معاون السائق: يا أستاذ.

ـ نعم.

ـ ما دفعت!

ـ لن أدفع.

قال السائق «تدفع غصباً عنك» فمد يده إلى جيبه. اخرج ليرة وقدمها إلى المعاون فتراكضت أصابعه نحوها. ولكنه أبعدها. مزّقها ورمى أجزاءها في وجهه. أدار ظهره. مشى في الطريق الضيق المزدحم بالناس. قلبه كان يدق بعنف ونشوة. تراه خاف؟ تراه رفض بيأس؟ النار ترتفع من بيت آخر. الدخان أيضاً.

تطلع إلى كفها الملقاة على جذع شجرة الليمون المخيمة على المقعد. حدّق في وجهها المضطرب كنبع. عيناها طائر متكبر. ويحدق فيهما. وجهها يتلوّن، فتحاول أن تثبت نظرها إلى التراب. نظراته تغمرها. يحب الخجل في وجهها. كأنه أول زورق يمخر أول بحر في العالم. يود لو يقبّل الألوان المتماوجة في وجهها: ما أخبارك؟

لا تجيبه. تظل تحدق في التراب. دائماً هذا السؤال الممل. يريدها أن تتكلم فتنسى خجلها. لمياء جريئة. تقتحم. يدها تبحث عن شيء تجهله. ويتناول أصابعها. تسند رأسها إلى ظهر المقعد. تود لو يقبلها الآن. كيف تكون القبلة الطويلة العميقة الحارة؟ متى يقبلها؟ عندها خوف وتوق. كأنها أول بحّار يخوض هذا العالم المائي المترامي أمامه. الخوف والرغبة يمتزجان فيزيد الواحد من حدة الآخر. أين حدود البحر؟ ما وراءه؟ ما معناه؟ إنها خائفة! تخاف ماذا؟ لا تدري. لو يقبلها. الرغبة والخوف يتجاذبانها. إنها تبتعد. إنها تقترب.

وتهرب من نفسها بأن تنظر إليه. يحدق فيها. يداعب أصابعها. يقترب منها. يد البحّار تتلمس الماء. إنه في ذروة اقتحامه وفي ذروة تخوفه. يقترب أيضاً. في سماء عينيه غيوم سوداء. ستتعرض

لأمطاره وعواصفه وأمواجه.

يضع يده حول كتفيها. انخطف شيء في صدرها. لا تتحرك. كأنها مفصولة عن جسدها. يجذبها إليه. تخاف أن يراهما أحد. لا يهمها. تلتصق بخصره وصدره. خيوط من اللهب والنشوة تحاك حولها. لو تظل هنا إلى الأبد. هنا تغفو وتستيقظ. يرفع وجهها إليه فتترامى شفتاه في شفتيها. تغرقان.. تنتقلان إلى عينيها، إلى شفتيها ثانية.. تغرقان. في أعماقها تيار غريب دافئ. تنجرف فيه. لا تتحرك.

وتنفصل شفتاه فجأة. تتفكك يداه من حولها فتسحب ستارة جفونها لتراه قد تحول إلى عمود من الملح. كأنها قشة قذفها التيار إلى الشاطئ فجأة. وتسأله: Anything wrong?.

يقترب منها. يحرك أصابعه. يريد أن يقول شيئاً. يبحث كيف يقول: إرفعي المرساة!

لا تجيب. تتطلع بحيرة فيوضح: السفينة لا تبحر قبل أن ترفع المرساة. عليها أن تتخلص من كل قيد يؤخر انطلاقها.

ـ لماذا لا تتكلم بصراحة؟

وسرَّه أنها غضبت، فقد بدت بشكل جديد. ووضع يده على كتفها: ناهدة، اسمعي، أحبك.

وضحكت. لم تكن تنتظر هذا الجواب، ولكن ضحكتها تلاشت. ما زال يحدق بها بهدوء. هذه مقدمة لشيء آخر. إنها في عالم وهو في عالم آخر. ولامت نفسها لذلك. لتصغي. وسأل ثانية: ناهدة، هل تثقين بي؟

ـ لا حاجة للإجابة على هذا السؤال.

ـ أجيبي ببساطه وصراحة.

قال ذلك بغضب فأجابته بغضب مماثل: وهل آتي إليك لو أني لا أثق بك؟

لملمته كلماتها وقذفته في دنياها من جديد. يواجه الشمس والبحر والمطر والغابات الكثيفة في عالمها. نسي ما أراد أن يقول. حدَّق فيها. اختطفها إلى صدره فسرّ أنها أحاطته بذارعيها تحميه من الحيرة والغضب. تقبله. حطمت جدران الخجل بنفسها. ترفع المرساة. وتنحبك يداه حولها بقوة: ناهدة، أحبك.

ـ كما أحبك؟

ـ تحبينني، إذن؟

ـ لا أعتقد.

ضحك. قال بهدوء: آسف.

ـ من أجل ماذا؟ من أجل ما أردت أن تقول؟

إذن فهمتْ ما كان يجول في خاطره؟ قال بإعجاب: تماماً.

ـ اسمح لي أن أرمي المرساة ثانية!

ضحك. هدأ وجهه. وتناولت فمه بشفتيها. المرساة ترتفع. أناشيد البحّارة تتكسر على الموج. المطر يترك نفسه يتساقط. راقصة الباليه تترك نفسها تنطلق. الريح أيضاً. وأزاحت شفتيها: لو لم أكن خجولة لعرفت أشياء كثيرة قبل الآن.

ـ مثلاً؟

ـ جئت إليك بمذكراتي. طبعاً، لن تقرأها الآن؟

ـ طبعاً. أقصد إذا قدرت!

وناولته المذكرات. تطلع إليها بفرح غامر وجذبها من يدها إلى المنزل الصيفي العتيق. الباب يصرّ عندما يفتحه. يصرّ ثانية، فيلف يده حول خاصرتها ويجذبها إليه، ولكنها تتفلت منه ضاحكة. وارتمت على المقعد العتيق فواجهتها معدات القهوة على رف مغبر ووقفت تقول: آه، فكرة. لم تذق قهوتي بعد!

ـ أي قهوة، تقصدين؟

وضحك. حدقت به. فهمت، فضحكت: طبعاً، أقصد القهوة القهوة.

سكوت. ما زال يبتسم. لا يدري ما يقول. عاد عبد الجليل يخطر في ذهنه. سرَّه أنه ترك جماهير المتظاهرين وانعزل هنا. كان عليه أن ينعزل من قبل. لا يستطيع. أصبحت ناهدة رمزاً للهرب. يلتفت إلى دفتر مذكراتها.. يتناوله فتصرخ: تقرأه فيما بعد. هنا نتكلم فقط.

ـ لا أستطيع. الأوراق تحدق فيّ.

ـ إذهب، إذن! عشْ مع كلماتي.

تمتد يدها إلى الرف المغبر. «لولاكِ ما كانت الكلمة». وتجيبه: لا أدري.

ـ طبعاً تدرين.

واتجهت نحو المطبخ. ودت لو أنه يقلب صفحاتها هي.. يتقلب بين كلمات صدرها. امتدت يده إلى الدفتر. ينفتح صدر الأوراق فيتفرس:

«سمعت ليليان تتكلم عنه فتمنيت لو ألقاه. تصورته الأمير يطبع قبلة على جبهتي فأستيقظ أنا الجمال النائم منذ أجيال. عندما قابلته

لم يكن كالأمير، ولكنني انجذبت إليه. حاولت أن أجلس قربه. استمعنا للموسيقى معاً. في يوم بارد أقبل بصحبة ليليان وفريد وأديب. جلس قربي. حكم عليّ أن أقبله في إحدى ألعابنا. لم أتردد، ولكنني قبلته على جبهته. خفت. وددت لو أنني قبلته في مكان آخر».

ورفع رأسه عن الأوراق. ضحك. اتجه نحو المطبخ. اقترب على مهل. تمسك بشعرها فاستدار وجهها ليقابل وجهه. الشمس تغرق في البحر: ماذا تقصدين في مكان آخر؟

ـ كيف؟

ـ تقولين أنك وددت. .

وقاطعته: يبدو أنك تريدني أن أذهب.

ـ أين المكان الآخر؟

وضعت إصبعها على شفته السفلى. لا يدري ما يقول. الدم يفور. يظل إصبعها ملتصقاً بشفته السفلى: لماذا لا تحاولين؟

تقترب. تحاول أن تقبل شفته دون أن تنزع إصبعها فلم تستطع تماماً. سرَّها أنها لا تستطيع تماماً. فمها يبحث. فمه يبحث. يزداد إصبعها التصاقاً بشفتيه. ودفعته عنها فجأة. الشمس تغرق في البحر. الرمل يبرد. نسيم الليل يلفح وجهه: من الأفضل أن نتحدث فيما أعمل القهوة. إبقَ هنا.

ـ لماذا؟ كي لا أقرأ.

ـ طبعاً، وإلا . .

ـ وإلا ماذا؟

ـ نحتاج أن نمثل فيلماً.

تضاحكا. تشاغلت في غسل كوبين فتسلل. ما كان يجب أن يخطب فيهم. ولكنه تحمَّس عندما قتل عبد الجليل ذلك المسكين عندما حاول منعهم من حرق منزل أخيه. أطلق عليه الرصاص بكل بساطة. وطأته الأقدام. كيف تجاسر أن يخطب فيهم. لا يدري.
فتح الأوراق:

«اليوم نهار أحد. لم أكن أنتظر أن أراه. تحدثنا بلا حرارة. مضى كل شيء ببرودة حتى أنني كدت أبكي بعد أن ذهب».

«ذهبنا إلى البحر. كنا Group فمضى كل شيء ببرودة أيضاً. هل سيعلم يوماً ما أنه كان بودي لو أبكي حين كان يتكلم مع لمياء. حملها هي والكرسي وشالها الأخضر كما حملني من قبل وراح يرقص. وانفصلت عنهم فلحقني. طلب أن نمشي معاً صوب صخرة على الشاطئ. ألقى يده على كتفي فارتعشت. وددت لو يشدني إلى صدره ولكنه لم يفعل. ذراعه انفصل عن كتفي. ولما عدنا أفسدت لمياء كل شيء من جديد فقد أخذت تتسابق معه في الماء الفائش. رفعت تنورتها. فخذاها بلون الرمل. تُرى، يحب سهيل فخذيّ البيضاوين؟ أرجو ألا يقرأ هذه الجملة. وافترقنا دون أي كلمة. أحس أن حياتي أغنية حزينة في هذه اللحظة. لا أريد أن أحبه. سأقول له إنني لا أحبك. سهيل، كم أحبك. لو نجلس وحيدينْ. عندما يحدث هذا سأشعر بالخوف. لماذا؟ ربما..»

وأغلق الدفتر عندما سمع خطواتها. حدقت به مبتسمة: أرجوك، سهيل!

ـ لا أستطيع. عليّ أن أعيش معك أو مع كلماتك!

ووضعت كوبيّ القهوة قربه. راقبها بحنان تبتسم فابتسم.

وتصب القهوة في الكوب أمامه. خطر في باله أن الزواج شيء رائع. غريب هذا الاحساس بالانتماء إلى عالم لم يعرفه من قبل. فرح إلهي يغمره. الفرح لا يقل عمقاً عن الألم. كأنه يتحول إلى فراشة تتطاير في حديقة مغمورة بالأضواء والألوان. صدره يتفتح مثل زهرة تستقبل نور الشمس: أرجو أن تحبها.

قالت وقد جلست قربه. امتدت أصابعه إلى كوب القهوة ورشف بهدوء وحذر. الموج يغمر الشاطئ. يتذوق القهوة: كنت أفضل أن نشرب في كوب واحد.

أحنت رأسها إلى ظهر المقعد. تبتسم بفرح: نشرب كوبي أولاً ثم نعود إلى كوبك.

اقترب منها. وجهها يقترب منه. حدق بها. تناول يدها بكفيه: فقدتُ كل برهة لم أعشها معكِ. ماذا أفعل بكل برهة لا تكونين معي منذ الآن؟

تسند رأسها إلى صدره. تبحث جبهتها عن عالمها في عنقه. تزحف شفتاه إلى جبهتها. . تهبطان إلى عينيها، إلى شفتيها وتعودان إلى عينيها: ناهدة!

- اشرب القهوة قبل أن تبرد.

ينحسر الموج إلى الوراء فيتعرى الرمل. ويصرخ: لا تهتمين إلا بالقهوة.

سرَّها أنه انفعل. ابتسمت. الغضب يتلاشى كالضباب من وجهه. رشف القهوة على مهل. تطلع في عينيها. تطلعت في عينيه فقال: ناهدة، آسف.

- من أجل ماذا؟ You don't have to, if you don't like it.

وهز رأسه بغضب: ناهدة، أرجوك. لا تغيري الموضوع.

ـ لا أفهم.

ـ أرجوك.

واكتفت بأن أخذت تحدق في عينيه. اختطفها إلى صدره. شفتاه تلتصق بشفتيها. الموح يغمر الرمل. الزبد يغمر الحصى. جسده يغمر جسدها. تغرق في وجوده. تغرق. شفتاه لا تترك شفتيها. تتحرك تحت صدره عندما يتحرك لسانه في فمها.. يسحبه. الموج ينحسر إلى الوراء فيتعرى الرمل.. ينغمر من جديد بالزبد. لا تدري ما تفعل. تستسلم فقط. يشد ذراعيه حول كتفيها. يريدها أن تعطيه لسانها.. ويتناوله بين أسنانه. يقضمه.. يقضمه. تتحرك تحت صدره. لا تدري ما تفعل. تستسلم فقط. ينزاح عنها. يفكك أزرار قميصها. يرميه إلى الجانب الثاني من المقعد. يتناول يدها. يجعلها تفكك أزرار قميصه. ثم تلقيه بعيداً فوق قميصها. يقبل كتفيها.. شفتيها.. أذنيها.. عنقها.. كتفها.. حفرتيّ كتفيها. يغرق في وجودها. تغرق في الموج. لا تستطيع أن تصرخ. ترتفع فوق الماء. لا تستطيع أن تصرخ. تلوح بيديها، فيتمسك بهما.. يلفهما حول خصره. صدره فقط يقترب من صدرها. تغرق إلى القاع. يكشف عن نهديها. ينبهر. الصبح يلامس الروابي البرية لأول مرة. أصابعه تقترب.. ترتجف. تنزع ثيابها قطعة، قطعة. أصابعها، بأشارة منه تنزع ثيابه قطعة، قطعة. إنهما عاريان. لأول مرة تنبهر. يقبل كل بقعة في صدرها. أصابعه تمر فوق كل بقعة في جسدها. ترتجف. لا تستطيع أن تقول «لا». يجب أن تقول «لا». لا تستطيع. السارية تغرز في الرمل. تتنهد. تقول من تحت البحر: سهيل.

وتظاهر أنه لا يسمعها. ويأتي صوتها إليه من وراء البحر مليئاً بالزبد والرمل والأصداف والمغاور: سهيل!

ـ نعم.

ـ . . .

ـ ما بكِ؟

ـ لا شيء.

السارية تنشك في الرمل. يتسلق القمة بوحشية. يتمهل. يجب أن يصلا إلى القمة معاً. ويقول: نصل إلى القمة معاً.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء.

ـ فهمت.

أصابعها تمر فوق جسده كالنمل. فكر أنها جريئة. قبل دقائق كانت تخجل أن تقبله. ما بها؟ إن شيئاً لم يتغير في الواقع. تخجل لأنها تخاف. وهي الآن تخاف ألا تستجيب.. أن تواجه الأشياء، وعندما تواجهها تخاف أن ترفضها. شعر أنه يتقلص. تراها ضعيفة. يحاول أن يتناسى. جسده يحتبك بجسدها.. يهبطان.. يهبطان. يسجدان على الأرض للشهوة. تنشك السارية في قاع البحر. اللهاث يتصاعد نحو القمة.. يتصاعدان معاً. يتصاعدان. الجسدان يرتجفان. يهمد كل شيء. الجفون تظل مغلقة. الأمواج تغور في الداخل فيتعرى الرمل في الليل. يبرد. غيمة تخيم فوقه. جسده قرب جسدها. هدوء يملأ العالم. جسده ينبسط كالرمل البارد. الحنان يخيم في عينيه يغمرها كطفل. هو شيء آخر. لا يستطيع أن يتكلم. لا يريد أن يتكلم. رأسها يرتجف على كتفيه. دمعة حارة

تتساقط على كتفه. ويزيح رأسها: تبكين، لماذا؟

ويسمع نحيبها عندما سألها. يسكت. إذا سألها سيزداد بكاؤها. دقائق تمر. يصغي للريح فوق البحر البعيدة. يحاول ألا يصغي. يزداد هبوب الريح فوق البحار البعيدة.. يلتف بالغيم.. يهبط إلى جذور الأعشاب في السهول.. يتجاوب في صدره فيقول: ناهدة، ما رأيك أن نتزوج؟

ـ آسفة.

ويحدق بها. فتستدرك: آسفة لبكائي. لا أدري لماذا.

ـ شيء طبيعي. ليس سهلاً أن تقدمي على تجربة تربّيت على الخوف منها منذ ولدت.

ـ . . .

ـ ناهدة، ما رأيك أن نتزوج؟

ـ كيف؟

ـ كل ما في الأمر أن أغيّر معتقدي! مع أني لم أرفض ديناً كي أعود فأعتنق ديناً آخر.

ـ أرى أنك تتخوف أكثر مما يجب. أمر شكلي لا غير.

ـ هل هو أمر شكلي أن ترضخي أنتِ لمبدأ يحرمك أن تختاري مصيرك؟ لماذا لا يحق لك أن تختاري من تشائين؟

وسكت. لا يدري ما يريد. كأنما ما زال يريد التعبير عن آراء كثيرة لا يدري ما هي. ظن أن فكرة رائعة قد تجلت له، ولكنها غارت في لاوعيه. وأراحته من محاولة البحث عنها عندما قالت: ولكننا بحاجة إلى الاعتراف بزواجنا.

ـ هذه هي المشكلة. لا أدري من قال إن المشكلة هي الآخرون. يريدوننا أن نرضخ حتى ولو بالنفاق. يفضلون النفاق على التمرد.

وتذكر ما أراد أن يقول فأضاف: لا أستطيع أن أعيش حياة مزدوجة كسائر الناس حولي. أن أكون شيئاً في الداخل وشيئاً آخر في الخارج. النفاق. النفاق. أكرهه، أكرهه.

ـ ماذا نفعل؟

ـ أفضل التمرد.

ـ ولو عبثاً.

ـ ولو عبثاً.

اقترب من فمها هرباً من قلقه وتمرده، واقتربت من فمه متحدية تراثاً بكامله. تنجذب إليه بكل ما في أعماقها من لهفة للحياة. عالم من الفرح والألم والنشوة والحنان والاطمئنان ينبع بصدق في دنيا مغمورة في صدرها. هل يمكن أن تكون على خطأ؟ لا يمكن. ستتحدى معه. وأشار إليها أن تستند إلى ركبتيه. اتكأت على جنبيه، واتكأ على جنبيها. يصبحان حلقة ضيقة. عيناه في عينيها. عيناها في عينيه. لا يجد ما يقول. التمرد يخيفه، رغم اعتقاده أنه الأفضل. ويقول: أتخوف من الزواج أحياناً!

ـ لماذا؟

ـ أخاف أن يسلبني أشياء كثيرة.

ـ كيف؟

ـ أراه أحياناً قيداً مثل القيود الأخرى التي تربطني إلى تقاليد الناس ويومياتهم وجزئياتهم. أريد أن أهرب. الطيران أفضل من

الالتصاق بخيوط العنكبوت.

ـ لماذا لا ترى الجانب الآخر، الحب والطمأنينة والعطاء؟

ـ فكرت بذلك. الحب، مثلاً، يتلاشى بعد الزواج.

ـ من قال؟ خطأ.

ـ يصبح شيئاً عادياً. يدور في عالم منظم.

لا تتكلم. تلقي رأسها على خاصرته وتتأمله. تريده أن ينطلق فيقول كل ما يشغل رأسه. يتناول يدها. يرفع كفها إلى فمه. تدفن وجهها في خاصرته. شفتاه تتبعان الخطوط المتشابكة في كفّها. تقبّل خاصرته باضطراب. فمها طائر صغير لا يعرف أين يستقر فيقفز من غصن إلى آخر. يقفز بسرعة. الموج يأتي ثانية من بعيد. تضيق حلقة جنبيه، فتضيق حلقة جنبيها. ويتلاشى الموج قبل أن يصل إلى الرمل عندما يقول: الحبيبة تصبح زوجة. ينتهي الشوق والتمزق والحنين. تصبح جزءاً من وجوده، ولكنها لا تحركه.

ورفع يده في الهواء. يتأملها. هي تتأملها أيضاً. يقول: يدي جزء من وجودي. إذا تألّمتُ تألمتُ. أي وجع يصيبها يصيبني. ولكنها لا تحركني. لا أفكر بها. مجرد جزء. لا فواصل بينهما. هو جزء وهي جزء. نعم يواجهان العالم معاً، ولكنها جزء. الزوجة يد أخرى. هل تفكرين بيدك؟ أقصد هل تحبين يدك؟

ـ لا

ـ لا أريد أن أنساك في المستقبل. لا أريد أن لا أحبك.

رفع خصلة من شعرها وهو يصغي إليها تقول: كيف تسمح لنفسك أن تشبه المرأة باليد؟ أنت تحرمها من وجودها. لها وجودها الخاص حتى بعد الزواج. لذلك يتوقف بقاء شعلة الحب عليها

أيضاً. قد تعرف كيف تحافظ على هذا الحب.

ـ شيء نظري.

ـ لا. أبداً.

ـ على الأقل مهمة صعبة جداً.

ـ أوافق. ألا تثق بي؟

ـ طبعاً. طبعاً. إنما

ـ إنما ماذا؟

ـ يبدو أنه لا بد من العودة.

ـ لا أفهم.

أغمض عينيه. أسند رأسه إلى كتفها. لا يريدها أن ترى التمزق في عينيه. قال: هربت من الشارع. الإنسان يضيع في الشارع. يشعر أنه جزء منه. هربت من المتظاهرين. الإنسان يشعر أنه قشة في التيار. أردت أن أنسى أن دير البحر في أزمة فجئت إلى هنا. تأملي أننا ننعم بجسدينا بينما تُحرق البيوت. ربما يطلق عبد الجليل النار على رجل آخر.. تطأه الأقدام.

ـ ولماذا تفكر بكل هذه الأمور؟

ـ لو يسمعك أبوك؟

ـ تمثاله يرتجف الآن.

وتضحك. تقبله. شفتاه لا تستجيبان. يفكر بشيء ما. وتتأكد من ذلك إذ عاد يقول: نحن هنا وحيدان. رغم هذا أشعر إنني لم أستطع أن أهرب. نحن الآن أشد التصاقاً بالآخرين.

ـ كيف، أيها المفكر الكبير؟

يتجاهل سخريتها فيكمل: عدنا إلى الكائن الأكبر نفكر بالزواج. غداً يتكوّر بطنك.

يمر بيده على بطنها. يضحك. يكمل: وبعد غد تنجبين طفلاً، ربما توأمين. بذلك يستمر الآخرون. الزواج نبع الآخرين. أرى أننا نعود إليهم. ما زلت أسير في الشارع. ما زلت في تيار المتظاهرين. أطأ معهم جسدي.

ـ وماذا تريد؟

ـ لا شيء. يبدو لي أن الهرب مستحيل. هذا كل شيء، هذا كل شيء.

تضيق الحلقة. يحاول أن يهرب من الموضوع. يسألها: تريدين أن أعيد المذكرات؟

ـ أريدك أن تحتفظ بها. أعتقد أن أمي تبحث عنها. أرجو أن تعجبك.

ـ اطمئني، ستعجبني.

ـ How do you know?

ـ يكفي أن تكون مكتوبة عني. ترضي غروري.

وضحكت فتناول يدها. أحنت رأسها إلى خاصرته. تذكر أنهما عاريان. نهر من الحنين يغمره فيود لو يبكي ويبتسم لها مثل بخور مريم المنحني على الصخور. يقول: تهدمت الفواصل بيننا. أصبحنا مصيراً واحداً. الصراحة يجب أن تكون نهائية بيننا. يستحيل الهرب.

ـ خطأي أنني تربيت على الخجل. أود أحياناً أن تقبلني ولكنك تنشغل عني فأكتفي بأن أحزن وأحلم.

ـ ولماذا لا تبدأين أنتِ؟ من الطبيعي أن أكون مشغولاً عنك أحياناً.

وقبلته. ضحك. قبلته ثانية. تعجب أنه لم يستجب. ما به؟ لا يستطيع أن يستجيب. يفكر بلمياء. ناهدة تقبله أيضاً. إنها تتكشف أمامه بوضوح. عارية في الداخل والخارج. لا شيء يحيطها بالغموض. لا فواصل. صافية كالسماء. لا شيء يثير فيه لهفة البحث. لا شيء يتحداه. كل شيء بين يديه. الملل. الملل. لم يتساءل عما إذا كان بدأ يحب لمياء فقط عندما رفضته. في تلك الليلة حلم أنه يحبها. لذلك فكر أن يهرب من دير البحر. هناك أسباب أخرى أيضاً. هل يريد حقيقة أن تنهدم جميع الفواصل بينهما فلا تخجل؟

ويتلفت من شبكة أسئلته. تنظر إليه باستغراب: بماذا تفكر؟

ـ بالسماء الصافية!

ـ لماذا لا تفكر بالتراب؟

ـ لأنني من تراب. ربما أريد شيئاً آخر غير واقعي.

ـ اقطف السماء.

ـ عند ذاك أملّ وأبحث عن شيء آخر.

ـ اكتفِ بالتراب، إذن!

ـ لا أستطيع.

وتسكت. يقترب منها فتبتعد. يمسك بيدها فتنشلها من يده وتجلس جانباً: ما بكِ؟

ـ أنا ما بي؟ بماذا كنت تفكر؟

ـ بكِ

ـ فكّر بي عندما أكون بعيدة عنك!

ـ عندي أشياء أخرى! أفكر بها، عند ذاك!

ـ أشياء أخرى! أستطيع أن أستنتج بأني شيء.

ـ طبعاً. أنا شيء. كلنا شيء، أقصد أشياء.

ـ لا حاجة لأن تبرر موقفك.

وتبتعد عنه. الحلقة تتسع. تجلس في زاوية المقعد الآخر. يتأمل الرابيتين البريتين. الضباب يغلفهما. يغلفها هي أيضاً. الفواصل ترتفع بينهما. السماء تختبئ وراء الغيوم. يتلهّف للبحث. شيء ما يتحداه. ويقترب منها. يتمسك بكتفيها. يحاول أن يقبلها. تنتفض بين يديه. تتهرب شفتاها. يتبعها دون جدوى. يتراكض وراءهما بنشوة. كل عرق في جسده العاري يتوثب.. يتراكض يبحث. يشدها إليه. شفتها السفلى بين أسنانه. يداعبها. قلبها ينتفض. الموج يرتفع صوب السماء، ويقترب من الرمل. شفتاها تستسلمان. تحيط رأسه بذراعيها. فمه يرشف بشراهة. ترك أصابعه تتسلق الرابية البرية. رفع كفه الأخرى إلى الرابية الثانية، فحاولت أن تهرب من أصابعه دون أن تترك شفتيه. تبعد صدرها بتململ، ولكن أصابعه تلاحقهما. يزداد ضغطها فتلتحم بصدره هرباً. وتسأل: متى أراك غداً؟

ـ وهل تسمح أمك؟

ـ سمحت أو لم تسمح. أطلب مني فقط أن آتي إليك.

ـ ليس قبل المساء. عندي مهمة غداً. أراك في الساعة السادسة.

وسكتت لا تدري ما تقول. اختطف قبلة من فمها وحبك يديه حول كتفيها. قال دون انفعال: ناهدة، لماذا لا نتزوج؟

ـ كيف؟

ـ اعتنق دينك ظاهراً ونتزوج الآن.

ـ تفضل أن ننافق؟

وأزاحت شفتيها عن عنقه: لا أريد أن أكون سبباً في تعاستك في المستقبل. نلتقي هكذا دون زواج حتى تسنح الفرصة.

ـ وربما لن تسنح الفرصة.

ـ اخترتك، عليّ أن أتحمل المسؤولية. إلا . .

واستمر في كلامه دون أن يسمح لها بمقاطعته: تعودت دائماً أن أواجه المشاكل، لا أن أهرب منها.

ـ لا يمكن أن نفكر بالزواج الآن.

ونهض من مكانه إلى رف قديم تكدست عليه بعض الكتب. تأملت جسده العاري. وقف على رؤوس أصابعه وقال فيما هو يتأمل عناوين الكتب: أعتقد أني رأيت كتاب «النبي» هنا من قبل.

تتأمل جسده العاري. ويقول: آه، وجدته. قرأته؟

ـ طبعاً.

نفض الغبار المتراكم عليه. قلب الصفحات بسرعة وعاد نحوها. تخجل. تحدق بقدمها. جلس قربها قائلاً: خفت ألا أجده؟

ـ لماذا؟

ـ احزري.

ـ كيف أحزر؟

ـ كيف Shame on you?

وتغير لونها فجأة. ابتعدت عنه قائلة: تريد أن تقرأ ما كتبه عن الزواج؟

ـ تماماً. وبذلك نصبح زوجين أمام أنفسنا على الأقل. وابتعدت أيضاً: لا أؤمن بأنصاف الحلول.

ـ وأنا أيضاً، ولكنه الحل الوحيد.

ـ Who said so?

يبدو أن لكِ حلا آخر. هاتِ لنرى.

ـ يمكنك أن تقرأ الآن وبعد ذلك نتحدث على مهل. It seems you want to read.

ضحك. اقترب منها. وانقلب بخفة على ظهره واضعاً رأسه في حضنها. تطلع بعينيها مبتسما فبدأت غمامة الخوف والحيرة تنقشع في سماء عينيها. . تتلاشى، وتنشبق ابتساماتها مثل نبع في جبل صخري عال. تمتد يدها إلى شعره. تداعبه. يقرأ. تتطلع إلى جسده العاري. لا تخجل، فهو لا يواجهها. تصغي. وعندما ينتهي من القراءة يشعر بخيبة، إذ أن جبران لم يقل شيئاً غير عادي في هذا الموضوع، ولكنه يقف فجأة. يشير لها أن تقف قربه فتسأل: لماذا؟

ـ نتكلل.

ـ لا يمكن. لا أوافق.

ـ على ماذا؟

ـ الزواج بهذا الشكل.

ـ أنا أيضاً لا أوافق. كل ما في الأمر أننا قد لا نلتقي بعد الآن. بعد ثلاثة أيام قد ننمسح عن وجه الأرض. اليوم الخميس. يوم الأحد قد ننتهي. قد لا نبقى حتى الأحد. ربما نلتقي الآن لآخر مرة. عندي مهمة غداً. مهمة خطيرة.

ونهضت لتقف أمامه. أرجوك ألا تقول هذا مرة أخرى، أرجوك دعني أذهب معك. لنهرب.

ـ نهرب؟ لا يمكن. لا يمكن. لا أستطيع.

وأسندت رأسها إلى صدره: آسفة. لا أريدك أن تهرب. إننا نتخبط. لذلك نقول أحياناً ما لا نريده. نحن غرقى. نتخبط بعصبية وتشنج.

ويغمرها. يود لو أنه سفينة إنقاذ فيحملها إلى.. إلى.. لا يدري إلى أين: حبنا يمحو كل خطأ يمكن أن نقترفه. لا نستطيع أن نتزوج أو نفترق، لا نستطيع أن نهرب أو نبقى، لا نستطيع أن نعيش أو نموت. أقل ما نفعل أن نتعاهد أمام ضمائرنا.

ـ ألم نتعاهد من قبل؟

ـ طبعاً. إنما نريد أن نتحدى مجتمعنا الذي توارث الطغيان والجهل منذ أجيال حتى أصبحنا جزءاً من وجوده. تعطلت فينا قوة الخلق. مهمة الفرد هنا أن يذوب في هذا الجسم الكبير العفن. لا نريد. لا حل غير التحدي. لن ننتصر، لكننا لن نتخلى عن التحدي.

ـ وهل نتحدى بفوضى؟

ـ أقسم. أقسم بماذا؟ لا أدري. ناهدة، أنا لا أريد أن أتحدى بفوضى. وما أردت أن أقرأ هذه المقاطع إلا كرمز لبحثنا المخلص

عن الحقيقة.

ووقفت أمامه. أحاط كتفيها العاريين بيده العارية وقال: لم يقل جبران شيئاً غير عادي في هذا الموضوع. ما قاله عن «الأبناء» أهم بالنسبة لموضوعنا. اقرأ مقطعاً من «الزواج» ومقطعاً من «الأبناء».

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا شيء.

وقرأ بصوت رائع:

«أحبوا بعضكم بعضاً، ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم.»

وقلب الصفحة فقاطعته: الآن أعرف لماذا تريد أن تقرأ.

ـ لماذا؟

ـ صوتك جميل ومؤثر. تريد أن تسحرني!

وضحك. وتابع قراءته:

«إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم.

إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم.

ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم.

أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم.

وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم.

ولكن نفوسهم لا تقطن في مساكنكم.

فهي تقطن في مساكن الغد الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولا

في أحلامكم».

توقف عن القراءة. الصمت يملأ عالمهما. وتلتفت إليه. يترامى «النبي». كفاه يتمسكان بكتفيها. يعودان إلى المقعد. يجلسان. يبحث رأسها عن عنقه لتستريح إليه. العالم هادئ. السماء تتلبد بالغيوم. الفواصل تتعالى بينهما. ويقول: جميل أن لا نتزوج.

ـ جميل؟

ـ على الأقل نحتفظ بالحب. لا تنسي ما قلت عن اليد. هل تحبين يدك؟ هل تتشوقين لرؤيتها؟ هل تحلمين بها؟ هل فكرت قبل الآن إذا كان لك يد أم لا؟ لذلك لا أحب الزواج. دائماً كنت أتهرب منه.

ـ كفى. كفى.

وتضحك. الصمت يسود. تتطلع بأصابعه. تتناولها. تقضمها بين أسنانها: تأكد إننا سنحتفظ بحبنا. أنا لست يداً.

ـ لا يمكن. لا يمكن. الزواج استقرار. لا شيء يحركني بعد ذلك. أريد أن أشعر أن شيئاً في أعماقي يتحرك دائماً. يتوثب. يبحث. يتلهف. أكره الهدوء. أكره الحياة العادية. أن أداعب أطفالي. شيء تافه.

ـ وكيف تعرف أنه شيء تافه؟

ـ أعرف.

وتضحك. تهزأ. تدفن رأسها في عنقه. يداعب شعرها. شفتاه غيمة ممطرة تهبط نحو لهيب شفتيها. اللهيب يمتزج بالمطر. الأمواج ترتفع صوب السماء. تتدفق صوب الرمل. الزبد يغمر الحصى.

ـ 2 ـ

تمهل سهيل على السلم المؤدي إلى غرفته. في الظلمة تتلمس قدماه الدرجات الحجرية بتمهل. تزحفان. ويصل إلى رأس السلم فيتناسى قدميه. نور المصباح الكهربائي المعلّق فوق العمود الحديدي البارد يرمي نوره عليه. ووقف يرقب الخط الفاصل بين الظلمة والضوء. لو كان في حياته مثل هذا الخط لعَرَفَ أين هو. تراه في ضوء؟ ما الظلمة؟ ما الضوء؟ إنهما يمتزجان في صدره.

ويفتح الباب. يسير في العتمة حتى الزاوية. يضيء مصباحه المظلّل. يعود. يغلق الباب. يعود. يترامى على المقعد. درّبه فريد على استعمال البندقية. فكر بلمياء. لماذا؟ تراها رمزاً آخر للهرب؟ دخل مع فريد إلى المقهى الشعبي. وجدا عبد الجليل يشرب الشاي فدعاهما للجلوس معه. ودّ لو ينسحب. استقبلهما الحاج عثمان مبتسماً. الناس يتجمعون حول الراديو يصغون إلى إذاعة الدولة الشقيقة تشجعهم على الصمود في وجه الأعداء. النراجيل تثرثر. يصغي لطقطقة الزهر يتراكض على خشب الطاولة. يتأمل الحروف الكبيرة المكتوبة بالفحم على الحائط: «حجّاً مبروراً ومسعاً موفوراً». يضحك. التفت عبد الجليل متعجباً. وقال: آسف من أجل ما حدث اليوم!

ـ لا حاجة للاعتذار.

ـ مصلحة دير البحر تقتضي ذلك.

ـ طبعاً. طبعاً.

لا يريد أن يجادل. يرقب صحفياً أجنبياً يجلس عند النافذة. تمر هدى على الرصيف من أمامه. تعود. تحدق بالصحفي. يضحك. «سنلقن الأعداء درساً لن ينسوه.» يصفق شاب للخطيب في الإذاعة. يحدق بالسقف. مذكرات ناهدة تحدق به. يقف فيسألة فريد: إلى أين؟

ـ يجب أن أذهب.

ـ إذن، نراكم غداً.

يخرج. يسير في الشارع. يسير في الزقاق الشمالي. الأضواء تموت ببطء. يهرب إلى غرفته. يترامى على المقعد. يحس أن مذكرات ناهدة في يده. ينهض. يقترب من النافذة. تمتد يده إلى الستارة. يحدق. الصحفي الأجنبي يتسلل إلى بيت هدى. يذهب إلى المسجّل. يديره فتنطلق الموسيقى.. تستيقظ. يدا المرأة العارية ترتفعان. ترتفع على رؤوس أصابعها. شعرها يحاول أن يغمر نهديها. الظلال في السقف. شعرها يترك النهدين. يعود إليها فجأة. صوت البيانو يرتفع.. يتعالى.. بعنف.. يهبط. غيمة تسبح في سماء عينيه. بماذا يفكر؟ لا يفكر. يعيش! زورق يعبر ضمير البحيرة. الغصن يتدلى نحو الماء. الضباب يحيط بالزورق الضائع.. ينحبك حول الشراع. البحيرة تحيط بالعالم. ينسحب من عالم الموسيقى. يأخذ مذكراتها. يعيش معها:

«إنني خائفة. إنني خائفة. هل أنا شيء عابر في حياته؟ ترى أحبه؟ عندما كانت تلتقي نظراتنا اليوم كنت أظن أنه سيضمني إلى

صدره».

«تمسك بيدي فجأة، ولكنني لم أجرؤ أن أحركها. تركتها فقط. غرس أصابعه بين أصابعي بهدوء.. بهدوء، فلم أستطع إلا أن أترك يدي ليأخذها حيثما شاء. أحس بشيء مبهم يتحرك في أعماقي».

«أنا متأكدة أنني أحبه. متى يقبلني؟ إنني خائفة. إنني متشوقة. لأنني أحبه أكتب هذه الكلمات على كل ورقة ا.. ح.. ب.».

رفع رأسه عن المذكرات. الموسيقى لم تنفصل عن عالمه. يراقب الآن نبعها يجري في أودية صدره. ترقب النبع معه. يشدّ يده حول كتفيها. تقترب شفتاه في الريح من شفتيها فتتململان من رقاد رمادي. الحياة تدب في وجوده. شفتاها النبع يغب من مائه العذب.. يغب، ولكنه يغيض. ينسى نهر الموسيقى في أودية صدره ويعيش مع مذكراتها مرة ثانية:

«رأيته اليوم ولكنني لم أكلمه. تعانقت نظراتنا أكثر من مرة، وكنت أشعر بعدها برعشة».

«جلسنا نستمع للموسيقى وأخبرته قصة آنا مجدالينا، وكيف كان باخ يغرق في البكاء حين يريد التأليف».

«كلما رأيت شخصاً ظننته هو. في هذه اللحظة يخيل لي أن سهيل قربي. امتلأت عيناه بالدموع. لو أراه الآن لطلبت منه بجرأة أن يجلس قربي ونتكلم عن الطيور في الأقفاص والشتاء والصيف والجراد في الصحراء والحب كما تراه أمي».

«كنت قد قررت ألا أشير إليه في مذكراتي إلا بالحرف الأول من اسمه «س» لكنني لفرحي أنسى ذلك، وأجد نفسي أكتب اسمه كاملاً».

«قالت لي أمي بأننا سنسافر لأن الحالة مضطربة. الأعداء يحتلون البلدة بعد الأخرى. هذا ما لا أريده طالما أن سهيل هنا. عندما أخبرته بأننا سنسافر قال: «ليتنا لم نتعرف إليكم.» كم تأثرت من هذا! ولكن، لماذا تكلم بلغة الجمع؟ إنني أحبه كثيراً، كثيراً. لماذا لا يصارحني بحبه؟ تراه يحبني حقاً؟»

«اليوم وجدت نفسي أكتب على ورقة: سهيل. سهيلي. My suheil. حبيبي سهيل. سهل. سه. سيه. سو. هيل. My paradies. My Hell. ضحكت ولم أمزق الورقة.»

«ذهبنا group في نزهة. كنا حوالي عشرة فتيان وفتيات، ولكنني لم أنتبه لغيره. عندما ذهب الجميع إلى النهر بقيت معه في السيارة، فأدار الراديو لنستمع للموسيقى. غمرني. لن أكتب ذلك. لا أستطيع. مرّ بيده على شعري، فدفنت رأسي بين يديّ واستندت إلى المقعد الأمامي. اجتاحتني رغبة البكاء، ولكنه تمسك بكتفي وأعادني إلى الوراء برفق. ثم أخذ يخبرني بأنه عندما كان طفلاً ـ وفيما يتطاير في الأرجوحة ـ اصطدم بأخته الصغيرة فارتمت وكسرت يدها. قال إنه هرب يوم ذاك وبكى على جذع صنوبرة. بعد ذلك تركني. دون أن يلحظ الدمعة في ابتسامتي وذهب ليأكل بطيخاً مع الآخرين».

«طلب مني أن أعطيه يدي.

وددت أن يطلب مني أكثر من ذلك».

«نظراته تحرقني».

«سألته لماذا يحدق بي هكذا ورجوته أن يبعد طائرَي عينيه عن بيدري فضحك وأجاب: لا أقدر أن أشيل عينيّ عنك. جميل أن

ترتفع حبة الحنطة في منقارِ طائر إلى السماء.

وسألت: وإذا سقطت من فمه.

أجاب: جميل أيضاً أن تخترق الهواء».

«قال لي مازحاً ما رأيك أن نسافر معاً إلى أوروبا؟

ـ كيف؟

ـ في البحر. نذهب سباحة، عاريين. وفي الليل نبحث عن صَدفة ننام فيها.

خجلت. ليته لم يكن يمزح».

«اليوم أيضاً شاهدته ولكنه أحنى رأسه مسلّماً باحترام وابتعد. لماذا يحاول أن يغيظني؟ ترى يريد أن يقول بأنه يحبني؟ فأنا أظن أن الإنسان عندما يحب يحاول أن يغيظ حبيبه!»

«أمس دعيت إلى حفلة راقصة ولكن أمي لم تسمح لي. أخبروني أن سهيل شرب كثيراً وانتشى فتصرف هو ولمياء تصرفاً غير لائق. هل هذا صحيح؟ أيفعل ذلك لينسى؟ على كل، أشعر بالغيرة. ما علاقته بلمياء؟ قيل لي إنها سألته أن يصب لها كأساً من البيرة الباردة: طفِّني، سهيل.

أجاب: حسبت أنني أشعلك.

أجابت: أنت تطفئني وتشعلني.

ضحك الجميع. أنا لم أضحك. ترى ما يفعل الآن؟ لماذا لم أذهب رغم إرادتها؟ يقترب مني: ترقصين؟

ـ لا.

وأنهض نحوه فأرقص مسندة رأسي إلى كتفه. عيناي مغمضتان.

أفتحهما. إنه ينظر إليّ بهدوء وحنان».

«قالت لي أمي بأنها لن تسمح لسهيل بالمجيء إلى بيتنا بعد الآن. انتظرت أن يأتي هذا الصباح، فجلست أنتظره عند شجرة الصنوبر. وجاء فأخبرته ما قالت أمي. استولى عليه سكون عميق. وانتفض فجأة. قال: ناهدة أظنك تعرفين كيف أشعر تجاهك.

قلت: نعم.

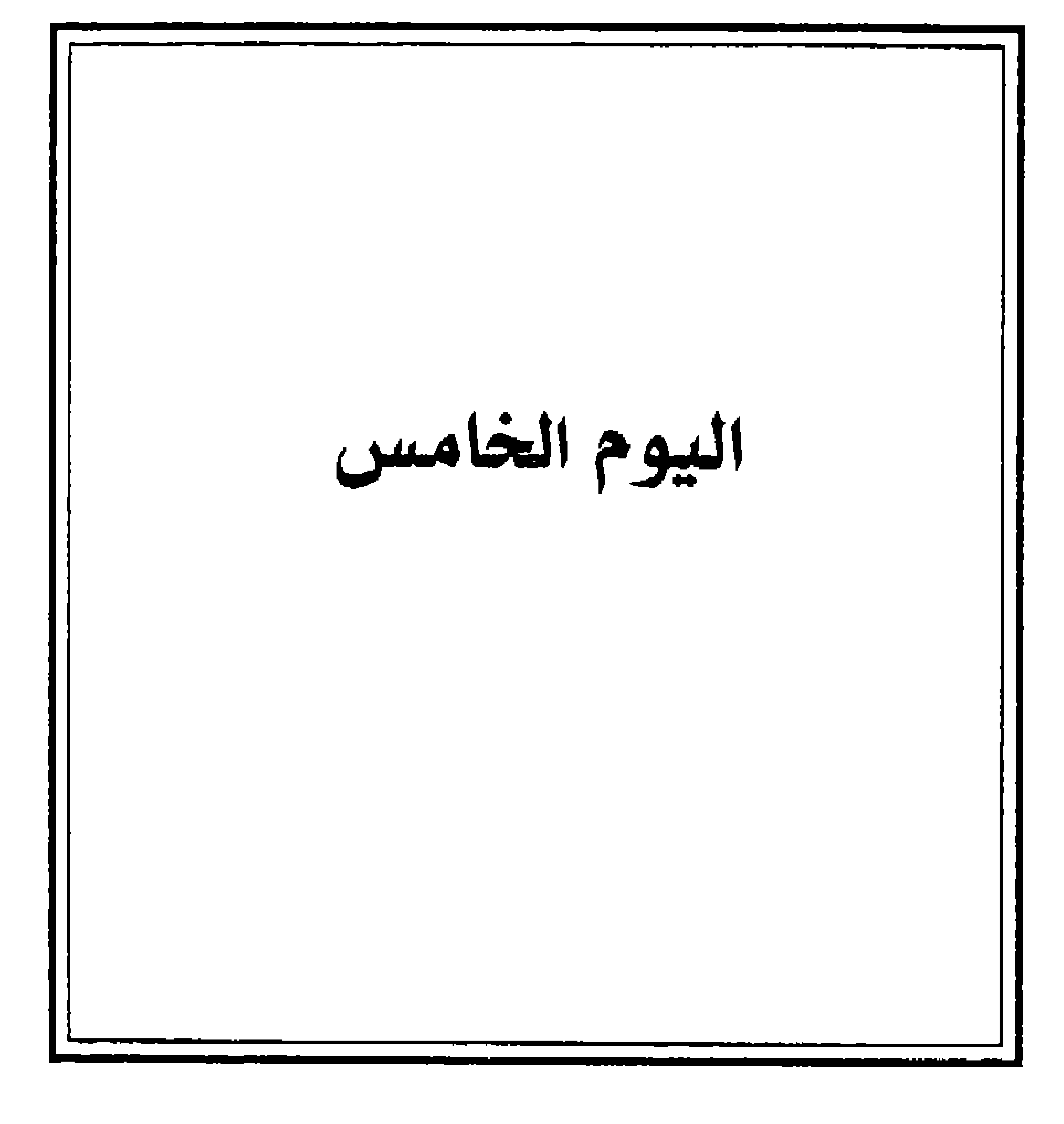
قال: لا توجد قوة في العالم يمكن أن تغيّر شعوري.

وعندما أجبته «وأنا أيضاً» ذهب. قبل الآن كنت أفرح أو أحزن أما الآن فأنا مليئة بالفرح والحزن معاً. اعيش الحياة في جميع ابعادها (وهذا التعبير لحبيبي) وأعماقها في وقت واحد (لا اعتقد أن هذا التعبير لي). من أجل ذلك سأتحدى وأتمرد وأرفض كما يريدني. أمي كانت تلبس حجاباً. ترى يريدني أن أقف أمامه عارية. لن أتردد عندما يطلب مني».

ويفكر سهيل أنها تحدت. ليس لأنها تخاف أن ترفض فقط. يضع المذكرات جانباً. يكملها فيما بعد. لا تريد أن يقرأها دفعة واحدة مع أنه يرغب في ذلك. يجب أن ينتظر دائماً شيئاً جديداً. الموسيقى ما زالت تنساب في أودية صدره. المياه ترتفع فوق الحصى حيث غارت. ترك نفسه لتيار الماء. ينجرف فقط. إنه بلا إرادة. لا مكان. لا زمان. لا موت. تلاشت حدود الإنسان الثلاثة. ولكنه لا شيء. ينتفض. إنه كل شيء. إنه المكان والزمان والموت بالحب. يتطلع إلى مكتبته. الكتب تنتظره. بدل أن يقرأ يناقش ويحارب ويفاوض. لماذا لا يقرأ ويناقش ويحارب ويتحدى، ويحب أيضاً؟ التيار يجرفه. صوت البيانو يتعالى على مهل. غيمة تسبح في

سماء عينيه. قطرات المطر تتساقط على ضلوعه.. على جفونه. ثوبها الحريري الشفاف يتساقط عليه المطر وهي ترقص. يتساقط فيلتصق بجسدها.. يلتصق. كأنها بلا ثوب. لا شيء يفصلها عن العالم. جسدها ريح يدفع شراعه.

يقفز إلى المسجِّل. يغلقه ويتجه إلى النافذة. النبع يغيض في أودية صدره.. تحت الحصى. الظلمة خارج النافذة. يتنفس بحرية. يعود إلى المسجِّل. يفتحه. الموسيقى تستيقظ أيضاً. مياه النبع تنبثق بين الحصى.



اليوم الخامس

ـ 1 ـ

لم يعد يذكر بماذا كان يفكر.

ـ ما الغاية من اتصالاتك؟

والتفت سهيل إلى الضابط. يبدو وسيما. نظر إليه بتحدّ دون أن يجيب. حاول أن يتجاهله فاستعرض المكان حوله. ما زال يشعر بالضياع. كأنما العصابة التي ربطوها حول عينيه منذ قبضوا عليه على حدود الدولة الشقيقة ما زالت في مكانها. كأنما المكان تحت الأرض. العتمة تخيم على الجدران، والضوء الصغير ينحني على الطاولة المغمورة بالأوراق. أشباح تتمايل على الحائط. يتأملها. المارد على الجبل. والغيمة تتصاعد من الحذاء، فصرخ فجأة: أريد أن أعرف أين أنا.

ـ أنت لست في بيتك.

قال الضابط ضاحكاً ولكنه توقف فجأة يسأل برصانة مفتعلة: ما الغاية من اتصالاتك؟

ـ وهل من الضروري أن يكون هناك غاية؟ إنه صديقي. ألا يكفي؟

أجابه سهيل بغضب فقفز الضابط من مكانه وراح يدور حوله بانفعال ظاهر. لاحظ أنه ينظر إلى سترته الممزقة وشعره المنبوش

وآثار الدم السائل من جرح في جبهته. الدم يمتزج بالتراب. اقترب الضابط منه بهدوء ووضع يده على كتفه مشيراً إلى كرسي أمام مكتبه: تفضل، إجلس.

وجلس متعجباً لهذا الانقلاب المفاجئ في لهجته. يبدو أنه يريد الحصول على المعلومات بطريقة لطيفة. لن يخبره شيئاً مهما استعمل من وسائل. ظل الضابط يبتسم عندما ركّز نفسه في مقعده من جديد وقال: أستاذ سهيل، يبدو أنك شاب مثقف. لذلك نريد بكل ما لدينا من إمكانية، أقصد بقدر ما تساعدنا أنت، أن نعاملك معاملة حسنة. نحن نحترم الثقافة.

وقاطعه سهيل بلطف ساخر: طبعاً، الارهاب ألطف رمز لاحترام الثقافة! تشريد الناس احترام للثقافة! اعتقالي بهذه الطريقة رمز آخر.

وظل الضابط محافظاً على هدوئه فأكمل متجاهلاً كلامه: قلت إننا نحترم الثقافة. لنا رسالة تجاه هذا الوطن.

ـ رسالة! أي رسالة؟

ـ ليس هذا هو موضوعنا الآن.

وتوقف عن الكلام. أحس أنه شرد عن الموضوع. برهة مرت. استجمع أفكاره وقال: لذلك أرجو ألا تضطرنا أن نلجأ للعنف. لدينا ألوان مختلفة من التعذيب. لا يمكن أن نتركك قبل أن نعرف الحقيقة. سنستعمل جميع الوسائل الضرورية.

ـ تهدِّدني؟

ـ لا، إنما احتراماً لثقافتك، أريد أن أقول لك بأن لدينا من يتلذذون بالتعذيب. لك هواية؟

ـ لا أدري!

ـ هواية هؤلاء التعذيب. اجمل ما في حياتهم أن يروا إنساناً يتلوى. عندنا نماذج عديدة منهم. أرجو ألا تعرفهم. أرجو ألا تراهم.

ردّد العبارة الأخيرة بغضب ولكنه عاد فسأل بهدوء: ما رأيك؟

ـ هل يمكن أن أسأل سؤالاً بسيطاً؟

ـ طبعاً، طبعاً، تفضل اسأل.

ـ أنت واحد من هذه النماذج؟

وامحت الابتسامة عن وجه الضابط. قفزت الشراسة إلى وجهه الوسيم ونهض بغضب. ضرب رجله بالأرض صارخاً: أسكت. خذوه للزنزانة. يمكنك أن تنتظرهم هناك.

واقترب منه جنديان. تمسكا بيديه وضربا قدميهما على الأرض بقوة. نهض الضابط من مقعده. اقترب منه بهدوء. وقف أمامه مبتسماً. وفجأة صفعه بقوة. أحس سهيل باللهب يمر كالسهم أمام وجهه. اصابعه ما تزال تنحفر في وجهه. انتفض في مكانه دون أن يستطيع التحرك. صفعه مرة ثانية. ثالثة. ظل يبتسم عندما أشار للجنديين أن يقوداه إلى الزنزانة.

دفعاه إلى عالمها الرطب الضيق المعتم. أغلقا الباب الحديدي. ما زال صوته يئز في أذنيه ورأسه. هذا هو السجن إذاً؟ شيء مخيف! ويستدير نحو الباب الحديدي. . يتجاذبه بعنف وسرعة. يعطيهم كل حياته كي يتركوه. لا يستطيع أن يعطيهم السر. يتجاذب الباب الحديدي بعنف وسرعة مرة ثانية. إنه لا يتحرك. ويسند رأسه إلى الحائط المعتم. أي مصير ينتظره؟ لا أصوات تأتي من قريب أو

بعيد. أمواج من الأزيز الخافت ترتفع. . تمضي رويداً رويداً. يتطلع إلى الساعة. عقرباها ما زالا يشيران إلى الرابعة. كأن الزمن لا يتحرك. يسند جبهته إلى الحائط. بعد ساعتين تكون قد بدأت تنتظره. رطوبة لزجة على جبهته. عتمة ورطوبة عفنة، هذا هو كل شيء. أمس قال إن حياته أغنية. رأس ناهدة يتململ على عنقه وصدره. يا أمواج الصمت املئي عروقي رويداً رويداً فتبطل الحياة.

وعاد إلى القضبان الحديدية ينظر إلى الخارج الضيق. الممر يتراكض بسرعة إلى عالم لا يراه. لن يستسلم إلى هذه الأفكار السوداوية التي تتراكض نحوه كالممر الضيق. ليفكر بما يمكن أن يُسأل وبما يمكن أن يجيب. يريدون، لا شك أن يعرفوا ما دار بينه وبين رئيس الأركان. لن يخبرهم شيئاً. بعد غد يزحف على رأس جيش لإنقاذ دير البحر ويردّ عنها الجراد.

ويعود يسند رأسه إلى الحائط الرطب المعتم. حتى الآن لا يستطيع أن يصدق أن عبد الجليل قد وشى به. دائماً كان يحس أن هذا الرجل مزيّف. لكنه لم يفكر قط أنه قد يقدم على مثل هذا العمل. أين الخطب والحماس والبيوت المحروقة والرجل القتيل؟ تبخرت ببساطة كما تبخرت الأموال التي جمعها أهل البلدة ليشتروا السلاح ويردوا الموت عنهم. هرب بها. طبعاً كل شيء يجب أن يقوم على الثقة. بعد ساعتين تذهب لملاقاته. ترى أين تكون الآن؟ ماذا تقول عندما لا يأتي؟. أمس، في مثل هذا الوقت، كان في سجن يديها. لماذا لا يعترف فيعود إليها ويهربان معاً. أجل لماذا؟ من أجل المخادعين؟ توقف برهة. يتلمس الحائط الرطب. لماذا يلوم عبد الجليل؟ أغرته الفلوس فهرب. وهو الآن تغريه امرأة فيفكر بالهرب. لماذا يلومه؟ هناك أناس مزيفون غير عبد الجليل أيضاً. إنه

شقي لأنه يريد الحقيقة، فما به يهرب منها الآن. لن يعترف مهما كانت النتائج. يريدون المعلومات، فلن يقتلوه. كل ما في الأمر أنهم سيعذبونه. سيتحمل. سيتحمل. ولكنه لن يشترك في المعركة الفاصلة فيواجه الموت. . يتفرس في وجهه ويعبره كالريح. فاته أن يكون أو لا يكون. كان ينتظر أن يعيش هذا السؤال حقيقة فيخاف ويتشجع، يتردد ويقتحم، يرحم ويقسو، يأمل وييأس، يسقط رفيقه فيحاول أن يسعفه ولكنه يموت بين يديه. الجسد يبرد. ورقة التين تسقط فوق الجليد. حواء تتدثر بجلد النعجة.

يستند إلى الحائط. الموت يقترب مثقلاً بالثمار. إنه غير ما كان يفهمه. يقترب كإله صغير. وجهه غير ما صوّرته كتب القراءة. الهيكل العظمي يكتسي بالحياة، والعيون الغائرة تفيض كالضوء بالفرح، والأنياب الحادة الباردة تتحول إلى أسنان لؤلؤية لامعة! الموت يقترب مثقلاً بالثمار والسنابل.

- 2 -

تلتفت ناهدة إلى العصفور الصغير يتقافز بين أثلام فائشة انحفرت على وجه الأرض وامتدت عارية في بساتين ألبرتقال نحو البحر. تنهدت وقالت لليليان التي تقف قربها: العالم رائع. أراه يتقافز كعصفور.

- لا يكفي أن تكوني فرحة. أجمل أن تمتلئي بأسرار الوجود حولك.

- تقصدين سر الوجود؟ إنني فرحة فقط. يكفي أن أفرح.. أن أتنفس بحرية.. أن أملأ صدري بالعالم.

تمددت يداها.. ارتفع صدرها كأنما تريد أن تضم العالم فيما تتنفس. تترامى يداها ويهبط صدرها، فتقول غداً: إذا ما تشردنا كم سنحلم بهذه الأثلام العارية، ببساتين البرتقال وأمواج البحر والتراب الأحمر! سنحلم بهذه الدروب والانحناءات والمرتفعات والأودية. سنمتلئ بالحنين ونبكي.

ودت ليليان لو تقول «المؤلم أن قتالنا عبث» غير أنها انسحرت بجمال ما قالته ناهدة، بالحرارة في عروق كلماتها، فسكتت. مرت برهة، قالت: يبدو لي أن الحب غيّر حياتك!

- لم يغير حياتي فقط. غيّر الحياة نفسها. غيّر الأشياء حولي.

تغيرت ألوان البحر والأشجار والسماء، والأشكال أيضاً. الأثلام تخطفني نحو البحر. الأودية تجعلني اشهق. آه ما أروع الموج!

ـ لقد تأخر سهيل.

وهبطت ناهدة في نفسها: لو لم تكوني معي، لا أدري ما كنت أفعل.

ـ يقال إنه مفاوض ناجح.

صديقتها تحاول أن تغيّر الموضوع. هي يجب أن تغيِّره. لا تريد أن تكشف عن عالم مجهول في نفسها، فتشعر بالفراغ. لتحترم مشاعرها. وخطت إلى الأمام. عادت إلى الوراء. وجدت نفسها تجيب: لا أدري، ولكنني متأكدة أنه يعرف كيف يملأ حياتي بالعالم. كنت قبل أن أحبه أتألم أو أفرح، أما الآن فأشعر بالفرح والألم معاً. انصهر في شيء واحد. العالم الآن..

توقفت. تطلعت إلى أصابعها وهي تحاول أن تحبك بعضها في بعض. الكلمات عجزت عن أن تحمل عالمها، فضحكت ليليان بألم. وتبينت ناهدة أنها لم تتوقف عن كشف ذلك العالم المجهول في نفس صديقتها. حاولت أن تغيّر الموضوع، فلم تجد ما تقول. مشت نحو المنزل العتيق حيث تعرت أمام سهيل أمس، وتبعتها ليليان. الباب يصرّ عندما تفتحه. يصرّ ثانية، فيلف يده حول خصرها ويجذبها إليه، ولكنها تتفلت منه ضاحكة.

ـ ما بكِ؟

لا تجيب. تجلس على المقعد. تترامى على خاصرته مثل شال من الصوف. قدح القهوة ما زال في مكانه. ودنت شفتاها منه تلامسانه بخشوع. سمعت أصوات الأمواج البعيدة. لو يهربان!

يجب أن تقنعه.. أن يحملها زورق وراء أرض الرعب هذه. لماذا تأخر؟

ـ تشربين القهوة؟

والتفتت إلى ليليان فشعرت أنها تنفصل عن أصوات الأمواج البعيدة وتعود تتجرجر حافية متعبة على الشاطئ الرملي. السارية تنشك في الرمل عارية. تدير وجهها عنها وتضحك.

ـ ما بك؟

ـ تحبين السارية؟

ـ السارية؟

ـ سارية عارية مشكوكة في الرمل على خليج بعيد.

ـ منظر جميل.

ـ وضحكت ناهدة عالياً. قهقهت. اندارت على نفسها: كم أنت بريئة. مثلك كنت بريئة. أمس تغيرت. I do not regret it

ـ تشربين القهوة؟

وعادت ناهدة إلى نفسها: فكرة لا بأس بها. القهوة غذاء العالم. تغمر العالم المجهول فينا. لا أدري. ربما تكشف عنه.

ونهضت ليليان لتعد القهوة. المكان فارغ. ضحكتها ما زالت معلقة على الجدران. اتجهت نحو رف الكتب. تناولت «النبي» وقلبت صفحاته. تتأمل الحروف. وسمعت صوته يتواثب عبر حقول الكلمات:

«أحبوا بعضكم بعضاً، ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحراً متموجاً بين شواطئ نفوسكم».

وقلبت الصفحة. ظل صوته يتواثب عبر حقول الكلمات أيضاً:

«إن أولادكم ليسوا أولاداً لكم.

«إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها. بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم.

«ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم.

«أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأن لهم أفكاراً خاصة بهم.

«ولكن نفوسهم لا تقطن مساكنكم.

«فهي مساكن الغد الذي لا تستطيعون أن تزوروه ولا في أحلامكم».

أطبقت الكتاب. أعادته إلى مكانه. دارت على نفسها اجتذبها شيء مجهول نحو الباب. يصرّ. تتطلع بالأثلام الحمراء الممتدة بانخطاف نحو البحر. وسمعت أصوات الأمواج البعيدة فتنشقت بحرية. يصرّ الباب أيضاً. لم تنتبه أن ليليان تنظر إليها مبتسمة. اقتربت مرة ثانية من الكتب. تجنبت أن تنظر إلى «النبي». تناولت كتاباً آخر. لا تدري لماذا تناولته. أعادته إلى مكانه. لا تدري لماذا أعادته. وسألت ليليان دون أن تلتفت إليها: ألم تحبي في حياتك؟

ـ حسبت أحياناً أنني أحب.

ـ عليك أن تهجري كل شيء وتعبدي رجلاً. عند ذاك توجدين حقاً.

ـ ربما.

ـ عليك أن تقفي عارية أمام رجل.

وأحست أن صديقتها قد صعقت. لم تنتظر أن تسمع منها هذا القول. حتى في الحلم تهرب من هذه الصورة. هي لم تنتظر أيضاً. على الأقل ليس بهذه السرعة. على الأقل ليس الآن.

سكوت. واجتذبها شيء مجهول إلى الخارج. صرير. ألقت نظرة على الدروب التي تلتقي عند مدخل البستان. لا أحد. لماذا تأخر؟ المرح في صدرها يمضي مع الأثلام إلى البحر. الحزن يأتي إلى عينيها فوق الموج. أنين بعيد يركض فوق الريح.

تدخل. تقترب من صديقتها. تقول بصوت غريب عليها، مليء بزبد البحر: لا أدري ما أقول، آسفة.

تستند إلى كتفها. تبكي. تربت ليليان على ظهرها. تجلسها على المقعد. السكوت يملأ العالم. تصب القهوة ببطء. «لتكن المحبة بحراً متموجاً». صوته يتواثب عبر حقول الكلمات. لماذا لم يأت؟

ـ 3 ـ

ـ ناهدة!

يفرك عينيه. يتطلع نحو اليد التي ايقظته فيرى جسد الحارس يخيم عليه. يضحك. يضحك بشدة، ويهوي عليه الحارس بالسوط. تهبط ضحكته من علو شاهق. أمواجها على الحائط. يصغي. ويسأل الحارس: كم الساعة؟

ـ العاشرة.

فرك عينيه ثانية. تطلع صوب الضوء الباهت. تركوه حتى استطاع أن ينام فأيقظوه. حرب باردة. لذلك تمالك نفسه عندما وقف أمام الضابط الذي سأل حالما أدخله الحارس إليه: طبعاً، غيرت رأيك؟

ـ رأيي؟ بالنسبة لماذا؟

وحاول الضابط أن يخفي غيظه فقال بلا مبالاة: ستعترف عاجلاً أم آجلاً. من الأفضل أن تتجنب العذاب ما دامت النتيجة واحدة. عندنا ألوان من العذاب لا تستطيع أن تتصور أنها موجودة.

ـ ماذا تريد أن أفعل؟

ـ طبعاً، أن تعترف

ـ أعترف بماذا؟

ووقف الضابط ليقول للجنود الأربعة حوله: يجب أن نعتذر للأستاذ المحترم. لقد أسأنا فهمه. أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

أجاب أحدهم، فارتفعت الضحكات. يقترب الضابط منه ويتفرس في وجهه. يبتعد متمشياً بهدوء نحو الحائط حابكاً يديه وراء ظهره. اقترب ثانية وابتعد بسرعة. لكنه توقف فجأة كأنما خطرت في باله فكرة جديدة. قال: ما دمنا أسأنا فهم الأستاذ المحترم، أرى أن نقيم له حفلة تليق بشأنه الكريم.

ـ طبعاً، طبعاً.

ترددت أصوات الجنود الأربعة ممتزجة. أصوات الكورس تردد. البحر تحت الرمل. ناهدة أحبك.

قال الضابط بصوت خطابي: نريدها حفلة كبيرة تليق بمقام الأستاذ المحترم، المبجّل.

قرر أن يتجاهل ما يقولون. حرب باردة. سيقابلها بلا مبالاة. أمواج البحر تخطف ناهدة فيثب نحوها. الضابط يقف أمامه. ينحني بتأدب مشيراً إليه أن يتقدمهم نحو الغرفة الثانية. مشى أمامهم. «نشرب من كوب واحد». لا بد أنها نائمة الآن. تأمل جدران الغرفة المغبرّة، المبقّعة. أحاطوا به. انتظر مفاجأة. لا يزال يتأمل الجدران.

دفعه أحدهم إلى الوراء فتلقاه الآخر بحذائه. ارتمى إلى الأرض. نهض دون أن يلتفت إليهم. أحاطوا به متضاحكين. دفعه أحدهم ثانية فتلقاه آخر بلكمة على وجهه، فترنح إلى الوراء محاولاً ألا يسقط. وشعر كأن جسده يكاد ينقصف عندما تركّزت قدمٌ على

ظهره ودفعته بقوة إلى الأمام. ترك جسده يتقاذفونه كيفما شاءوا. يراقب الظلال على الجدران. العفن في الزوايا: بماذا تفكر؟

ـ بكِ، ناهدة!

ـ فكّر بي عندما أكون بعيدة عنك!

ـ عندي أشياء أخرى أفكر بها آنذاك.

ـ أشياء أخرى! أستطيع أن أستنتج بأني شيء.

ـ طبعاً. أنا شيء. كلنا شيء، أقصد أشياء.

تمتد يدها نحوه، فتركض يده إليها، ولكنه ينقذف بعيداً. يتطلع بغيظ إلى الجندي الذي لبطه. ترتفع الضحكات. يمحو الغيظ من وجهه. الضحكات تخفت. يزداد في لامبالاته فيتضاءل البريق في وجوههم. ضرباتهم تفتر. سرّه أنه يفهمهم تماماً. يتطلع إلى الظلال على الجدران. الضربات ميتة. ويصرخ الضابط: كفى. كفى. أنتم تدللونه.

اقترب من سهيل وقال: هذه مقدمة فقط. يمكنك أن تفكر في الأمر خلال نصف ساعة. بعد ساعة عليّ أن أبلغ القيادة النتيجة. أقتلك. سمعت؟ أقتلك.

وأعاده إلى زنزانته فارتمى في الزاوية، ولكن الحارس صرخ يأمره أن يقف. وعندما لم يستجب أحس بلسعة سوط تحرقه فوق كتفه فنهض ببطء واستند إلى الحائط.

ـ ارفع يديك.

ناهدة! ورفع يديه دون تردد فقال الحارس: لا تحركها، سمعت؟ السوط لا يرحم. لا يرحم ابداً.

وتمسك بكتفه فاندار نحوه. لوّح بالسوط في يده. تعرف نوع هذا السوط؟

ـ أعتقد.

وقهقه الحارس فيما كان يغلق باب الزنزانة الحديدي وراءه. أزيزها الحاد يترجرج في أذنيه. وظلت يداه مرفوعتين. لا يستطيع أن يقاومهم إلا بالتقيد بتعليماتهم. ناهدة، أين أنتِ؟ نائمة؟ لماذا لا أنام أنا أيضاً؟ أسدل ستارة بيني وبين العالم، وأنسى أنني مسؤول. مسؤول عن ماذا؟ بعد غد يهربون جميعاً. ما يدريه أن معظمهم ليس عبد الجليل؟ من أجل من يحمل هذا العذاب؟

ـ تعرف هذي؟

ـ أعرفها.

ـ إنها رمز لدير البحر.

هدأ. تراني بدأت أنهار؟ هدأ. من حق الناس أن يهربوا أو أن يموتوا، ولكن ليس من حقه أن يقرر مصيرهم. رضي أن يتكلم باسمهم، فأقل ما يفعل أن يتحمل مسؤولية ما ارتضاه. سيحاول ألا ينهار.

والتفت إلى الوراء. الحارس ما زال عند الباب. تعبت يداه. الخدر يسري فيهما. ناهدة. العالم ينحدر برهبة ودون تردد. يلصق رأسه بعالم الحائط الأسود. ينفصل هو أيضاً. يركض وراء ذراعيه. ينفصل. ينفصل. جياد بيضاء تتراكض نحوه في غيمة من غبار. تتراكض في غيمة من حنق. الغبار يتعالى. جياد بلا فرسان. تقترب منه. تقترب. تتراكض. يحاول أن يهرب من طريقها. لا يستطيع. تقترب. تتراكض. يحاول أن يهرب. لا يستطيع. ناهدة. يرى

حوافرها ترتفع نحو السماء. ترتفع نحو السماء. ناهدة. الحوافر تهبط نحو الأرض. ويصرخ بقوة. الحوافر تطأ صدره.

ـ مجنون؟

ينفتح الباب بسرعة فيردد الحارس ثانية: مجنون؟ مجنون أنت؟ ما بك؟

يتطلع حوله مشدوهاً. ما به؟ لا يدري. وطأته الجياد منذ برهة. صدره ينتفض. أين الغبار؟

ـ ما بك؟

ويرمي يديه إلى جنبيه منهوكاً، فيصرخ الحارس بغضب: ارفع يديك.

ـ لا أستطيع.

ـ ارفعهما.

يحاول. لا يستطيع. وبدل أن يرفعهما يجد نفسه قد جلس في مكانه. السوط يلف كتفيه بحنان، فيصرخ بألم. يصغي الحارس لأنينه يتوغل في الأشياء المعتمة حوله. ويصرخ الحارس: قف. قف بسرعة.

ويظل جالساً في مكانه رغم أنه أراد أن يقف. ارتفعت يد الحارس بالسوط. وشعر بيد تتمسك به. التفت بغضب. إنه الضابط. همد. ويشير إلى الحارس أن يُلحقه به.

تنفس سهيل في الممر الصغير الضيق المؤدي إلى مكتب الضابط. تنفس ثانية. العالم يعود إليه. لم يحاول أن ينظر إلى الضابط. الظلال تتراقص على الجدار.

ـ تريد أن تعترف؟

ـ اعترف بماذا؟

ـ يجب أن تعترف. أقتلك. أقتلك.

ـ أعرف.

ـ تعرف؟ اعترف إذن!

وقابل سهيل غيظه ببرودة: لا أعتقد بأنني سأعترف.

ـ من الأفضل أن تعترف.

ـ أعترف بماذا؟

وأشار الضابط إلى الحارس أن يأخذه نحو الضوء الكهربائي في الزاوية، ثم أخذ يقلب صفحات تكومت أمامه وكأن لا شيء يثير اهتمامه. أخذه الحارس إلى الزاوية ففكر سهيل أنه سيواجه نوعاً جديداً من العذاب. وبرقت الغرفة بضوء قوي تفجّر في الزاوية. وصرخ الحارس: تعال.

اقترب فسأله الحارس: هل ترى هذا الضوء؟

ـ أعتقد.

ـ تعترف أم تحدق فيه؟

ـ اليس هناك احتمال ثالث؟

ـ لا أفهم ما تقول

ـ أمر طبيعي.

ضحك سهيل، وابتسم الضابط، فارتفع صوت الحارس بغضب: تعترف أم تحدق؟

ـ كما تريد.

ـ حدّق إذن.

ضحك الضابط. كبت ضحكته حالاً. اقترب سهيل من الضوء. حدّق فيه فانبهرت عيناه. ووجد نفسه يغمضهما فأحس بلسعة خاطفة بين كتفيه. جلده يتفسخ. إفتح عينيك وإلا قتلتك.

ـ لا تستطيع. يقتلك الضابط إذا قتلتني. يريد أن يعرف السر.

والتفت إلى الضابط ليسأل ساخراً: اليس كذلك يا حضرة الجنرال؟ ألا تقتله إذا قتلني، يا حضرة الجنرال؟ تريد أن تعرف السر، يا حضرة الجنرال؟ أنت جنرال فاشل، وإلا..

وأحس بلسعة سوط بين كتفيه وصوت الحارس يدوي: اسكت أيها الوقح. حدّق في الضوء حالاً.

ـ إلى متى أحدق فيه؟

ـ حتى تعترف.

ـ إذن سأحدق إلى الأبد.

ـ أو إلى أن تصاب بالعمى.

وأضاف الضابط: بعد ذلك نستعمل وسائل أخرى.

ـ حدّق في الضوء، سمعت؟

وراح يحدق. انبهرت عيناه. العالم لهيب. مرّت برهة ويظل يحدق. مرّت برهة أخرى. الدموع تملأ عينيه، ولكنه اعادها إلى مكانها. السوط يرتفع. لماذا لا يعترف؟ أخيراً لا بد أن يعترف! لا يستطيع أن يموت! لماذا؟ لا يستطيع، لا يدري لماذا! وأزاح عينيه عن الضوء. التفت إلى الضابط. لا يراه، ولكنه قال: أريد أن أعترف.

ووقف الضابط: إذن عدت إلى رشدك. هات. قبل ذلك. لا تحاول أن تكذب. أستطيع أن أعرف. إحكِ.

ـ أحكي ماذا؟

ـ آه، تكذب؟ تخدعني؟

والتفت إلى الحارس: اجلدْه عشر جلدات وارجعه إلى الضوء. يخدعني الكلب.

ويدير ظهره للحارس مغمضاً عينيه. ناهدة، أين أنتِ؟



اليوم السادس

- 1 -

الهدوء والعتمة غيمة. طفل يبكي. يتململ فريد في فراشه. ما زال مرتدياً لباس المعركة. البكاء حاد متوتر متقطع. يتململ في فراشه. يسقط الغطاء. الفجر يتململ أيضاً. غطاء الليل ما زال يغمر العالم. دويٌّ انفجار. يقفز إلى وسط الغرفة. الرصاص ينطلق من كل مكان في دير البحر.. يتوقف فجأة. الهدوء غيمة سوداء مثقلة بالمطر. يخرج إلى الشرفة. يتطلع. طوفان من الغضب يجرف البلدة الصغيرة النائمة بهدوء عند البحر في ظلّ القمة البيضاء. هجوم حقيقي. مدة الانذار لم تنته بعد. كان من المنتظر أن تقع المعركة غداً. أين جيش الدولة الشقيقة؟ أخبار سهيل انقطعت. عبد الجليل هرب بالأموال. ربما هي مناورة. انفجار قوي يدوّي. رصاص يلعلع. إنها معركة حقيقة، يواجهونها عراة. الدويّ يغمر البلدة. الطوفان يملأ العالم. وقفز إلى العالم. كان والده يحاول أن ينهض من فراشه دون معونة. عمته لا تجسر أن تفارق الفراش. تفتح عينيها بقدر ما تستطيع. تحدق بالسقف. أخوه مغمور تحت الغطاء. البندقية الخشبية عند أقدام السرير. صرخ بهم أن ينهضوا. أن يعدّوا أنفسهم للهرب. وهدأ. لا يدري ما يفعل. كيف يجمع المجاهدين؟ كلٌّ يدافع عن بيته. ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟ وجمد في مكانه. ليسيطرْ على أعصابه قبل أي شيء ومهما كانت الظروف. لينطلق نحو مركز

التدريب. أبوه؟ وعمته؟ وأخوه؟ تذكر أنه ما زال نائماً. لن يوقظه. يتركهم؟ ماذا يفعل؟ هل تقتصر مهمته على حماية نفسه؟ دير البحر هي مهمته. لا يستطيع إلا أن يتركهم. والتفت إلى عمته: لا تخافي. استعدوا للخروج من البلدة سأرسل لكم سيارة.

ـ لا تتركنا أرجوك.

ـ فريد.

ويلتفت إلى أبيه. يظل صامتاً. يقترب منه: ماذا؟

ـ أعطني البندقية.

ـ لماذا؟

ـ أعطني البندقية. قبل ذاك خذني إلى النافذة.

ـ لا. لا. يجب أن تترك.

ـ أترك؟ أترك؟ إلى أين؟

هدوء. صخب في صدره. والده حرّك البحر في أعماقه. يعرف الآن ما يفعل. ويتجه نحو الباب دون أن يناوله البندقية فيصرخ به مرّة ثانية: فريد، لن أترك البيت. هل تفضل أن أموت دون مقاومة؟

ـ لا.

ـ إذن؟ تريد أن تعذبني؟ تريد أن أهرب لأموت في مكان بعيد؟ إنها فرصة عليّ أن أتمسك بها. فرصة. أكره أن أموت في السرير.

يعود إليه. يحمله نحو النافذة. يندفع إلى الغرفة الثانية. يعود بالبندقية ويضعها بين يديه. يركزها على كتفه ويصوبها نحو الزقاق المواجه للنافذة. يعيدها إلى حضنه ويلتفت إلى فريد: ماذا تنتظر؟

ـ قد لا أراك.

وقاطعه والده: فريد، بلا ميوعة. أطلب منك شيئاً واحداً.

ـ ماذا؟

ـ لا تهرب.

يتجه نحو الباب. يغلقه وراءه بسرعة كي لا يسمع استغاثة عمته. الناس يتراكضون في الشارع بثياب النوم. السيارات تزعق. إحداها تصدم امرأة. لا أحد يلتفت إليها. الأقدام تقفز من فوقها. هو أيضاً يقفز من فوقها. الرصاص ينطلق قريباً. يضع الرشاش تحت كتفه. يمر أوتوبيس مليء بالرجال والنساء والأطفال والشيوخ. لا يجوز أن يسمحوا للرجال بالهرب. كيف يوقفونهم؟ لا يدري. ويسرع نحو المركز. لم يكن هناك غير فيصل ونايف وفؤاد. مجاهدان آخران يصلان معه. التفت إلى فيصل: اتصل حالاً بالأركان.

وظل فيصل جامداً في مكانه، فصرخ فريد بغضب: سمعت؟ اتصل بالأركان حالاً.

ـ حاولت من قبل. الخطوط مقطوعة.

ـ إذن أرسل نايف في سيارة الجيب.

ـ أرسلت سلطان.

وسكت. شعر أنه تقلص في مكانه. لقد تأخر. كان يجب أن يكون هنا قبل أي شخص آخر. كان نائماً وقفز إلى نفسه. لن يستسلم لأي عاطفة. ليفكر فقط. يفكر بماذا؟ ليهاجموا. يهاجمون من أين؟ الأعداء موزعون في جميع أنحاء البلدة. إنهم في الداخل. تسللوا في الليل دون أن يشعر أحد بهم. كان قد وصل عدد من المجاهدين. اثنان آخران يتراكضان. أشار إليهم أن يتجمعوا حوله:

سنركّز قوانا في الحي الغربي والجناح الشمالي. أقل ما نفعل أننا نحمي النساء والأطفال والشيوخ الهاربين إلى الشاطئ. أيضاً قد نجر الأعداء إلى المعركة. يجب أن نواجههم. نايف، ابق هنا. كلما جاء مجاهد أرسله إلينا.

ـ أترك غيري. أريد أن أحارب.

ـ هذا أمر. تلحقنا بعد ربع ساعة. وأنت يا كريم اذهب مع عادل إلى الساحة. امنعوا الرجال من الهرب. كيف؟ لا أدري. امنعوهم. هدّدوا أصحاب السيارات.

وانطلقوا إلى الحي الغربي. دويٌّ يتصاعد من دير البحر.. يغمرها. الناس يتراكضون في الشارع نحو البحر. السيارات تزعق. انفجار قوي. أزيز. لعلعة. غيوم هادئة. السماء مفصولة عن الأرض. غطاء الليل ما زال يغمر العالم. السيارات تتراكض بلا أنوار.

* * *

عندما اندفع عامر إلى الغرفة كي يتناول البندقية، أحس بالباب يغلق وراءه وسمع صوت أمه من الخارج: لن تذهب! دير البحر جحيم.

ويلبط الباب بحنق: افتحي بسرعة. قلت افتحي.

ـ عامر، كن عاقلاً يا بني. اشفق على أمك.

ـ أترضين أن أكون جباناً؟

ـ لا. أريد أن تكون عاقلاً. حماس صبياني.

ـ قلت لكِ افتحي الباب. الآن. الآن. الآن. رفاقي يموتون.

ـ ألف أم تبكي ولا أمك تبكي.

وراح يلبط الباب بقوة وتتابع فيما تصرخ أمه من الخارج: لا. لا يا ابني. لا، كن عاقلاً. أرجوك. اشفق عليّ. ما لي غيرك.

صوتها يأتي إليه مفعماً بالبكاء. ويرمي نفسه بكل جسده على الباب فينفتح وتواجهه ذراعا أمه ممدودتين: أرجوك يا ابني. أرجوك عامر. لمن تتركني؟ اشفق عليّ.

وضمها إلى صدره بحنان: أمي، لا تخافي. عليّ أن أثبت وجودي مهما كانت النتيجة. أرجوك. لا تخافي. سأذهب. لا شيء يمكن أن يمنعني. لذلك من الأفضل أن تباركيني وتطلبي مني أن أذهب. قولي لي «اذهب مع السلامة». لا أريد أن أذهب بالرغم عنك. قولي رافقتك السلامة. وإلا تكون حياتي شقية. قد يكون الخطر في أن اختبئ هنا أو أن أهرب.

ملامح وجهها تتغير. التجاعيد تتكاثف كأنما صمّمت على أمر خطير. تحاول أن تقول شيئاً. لا تستطيع. وينطلق نحو الباب. يلتفت إليها قبل أن يتوارى. يسمع صوتها آتياً إليه هادئاً مبحوحاً كأنما ينبعث من كهف عميق، بعيد في صدر الجبل: مع السلامة يا ابني. حفظك الله.

ويصل إلى المركز هو وخمسة مجاهدين آخرين. يقول لهم نايف أن يلحقوا بالآخرين في الحي الغربي. ينطلقون. الرصاص يتغازر ويتقدم ويتطاول. ويحدث فجأة انفجار قوي في أحد البيوت أمامهم فيهوي على نفسه. صراخ حاد ينقطع فجأة. خنجر في القلب. هدوء. أنين الرصاص يعود من الجبل الصخري وراءهم. وتحدق افواه بنادقهم في الشارع الطويل. . تنتظر أن تلمح عدوًا. لا

أحد غير الهاربين. زعيق السيارات يحمحم. وبدا فريق من الأعداء يتقدمون بسرعة. فرذت الأفواه المحدقة عليها بشراسة وتحد وأزيز مرتفع. لم يتوقف الأعداء. وتستفرس البنادق، تحمحم، تتواثب ما زالوا يتقدمون. ويتمترس عامر مع رفقائه في الزوايا. أحس برهبة. الزاوية معتمة. ورائحة البارود تملأ صدورهم بالحماس. ويبرد الحماس فجأة. الرصاص ينهمر عليهم من الخلف. إذن أحاطوا بهم؟ هكذا بسرعة؟ لم تبدأ المعركة بعد. ويصرخ جميل. يسقط إلى الوراء. الدم يسيل من وجهه ويختلط بالتراب. يمزق سالم قميصه ويلفه حول جرحه. يحاول أن يحمله فيصرخ: اتركني.

يرفعه بين ذراعيه إلى صدره. يمشي به. يتوقف. الرأس هبط فجأة. صمت. الجسد لم يعد يتحرك بين يديه: جميل، جميل.

لا يجيب. يهبط به إلى الأرض ببطء ورفق. وضع كفه على قلبه. الأضلاع لا تتحرك، لا تتجاوب في منعطفاتها أصداء القلب. وصرخ: مات

لم يتحركوا. بنادقهم تصوب بغضب وألم نحو الموت الزاحف نحوهم من كل جهة وتقذف ما في صدرها. يظل سالم واقفاً بذهول. الرصاص يجندله أيضاً. وفكر عامر أن يخترق الحصار، فالتف حول البناية إلى يمينه. تستَّر بالجدران والزوايا والظلمة الهاربة. قد تكون هذه آخر لحظات حياته. وماذا إذا كانت؟ لا يريد أن يفكر بذلك. الموت مخيف لأنه يفكر به. ليعبره تلقائياً كما يأكل ويشرب وينام ويحلم. يداه على القنبلة. ترى تنفجر؟ يزحف بسرعة. تراه يخترق الحصار؟ ليفكر فقط كيف يقذفها فيقضي على أكبر عدد ممكن. قد تكون هذه آخر فرصة في حياته. لا يريد أن يفكر بذلك. قد تكون هذه آخر فرصة في حياته. يتسلق الحائط.

يقفز إلى الحديقة. يتسلل بين أشجار الليمون. اسرع. وقع خطواته يموت في لعلعة الرصاص. توقف فجأة. توقف اطلاق النار. يزحف ببطء وحذر. عاد فأسرع. إنه يقترب. . يقترب. لا يريد أن يفكر بأي شيء سوى أن يلقي القنبلة. الأفكار تتراكض في رأسه. . تجرفه. توقف لبرهة. إنه ينفصل عنها. اقترب. توقف وراء الشجرة. تسلقها إلى حائط آخر. حدق من وراء أغصانها وهبط بحذر. زحف ملتصقاً بالتراب. وارتطمت قدمه بشيء فتدحرج. تطلع إلى الأعداء. يبدو أن أحدهم سمع الصوت. يحدق باحثاً عنه. وشاهده يصوب البندقية إليه فرمى القنبلة. لم تنفجر. اتسعت حدقتاه. الرصاص ينصبّ عليه. يتساقط على نفسه. الدم يتدفق من رأسه وفمه وصدره. هدأت انتفاضات قدميه. . هدأت. لا شيء.

* * *

البلدة تصخب بالخوف والصراخ والرعب. يتراكض أبو عزيز مرة أخرى بقميص النوم إلى البيت. صوت السائق يلاحقه: بسرعة، بسرعة.

قدماه الحافيتان تتجرجران. يجمع ثيابه العتيقة. يضعها في كيس. ماذا أيضاً؟ لا بد أنه نسي شيئاً آخر. يتطلع حوله. ماذا نسي؟

تعالى زعيق السيارة فأسرع نحوها. قذف الكيس إلى الداخل، فتذكر حالاً أنه نسي الدجاجات.

ـ اطلع يا أبو عزيز، اطلع.

ـ اسمع، اسمع. لحظة. لحظة واحدة.

وركض إلى جانب المنزل. الأزيز يقترب. يرتفع صراخ

الدجاج. يختلط بالدوي وبصوت السائق: يللا، يا بو عزيز. عجل.

صوت الدجاج ما زال يرتفع. الرصاص يتساقط على السيارة فتنطلق. كان صراخ الدجاج ما زال يختلط بلعلعة الرصاص.

* * *

صراخ يملأ دير البحر. ولولة النساء. بكاء أطفال. انفجارات متتالية. العالم يغرق ونوح يتفرج مراقباً من سفينته الآمنة في البحر. قزّز الخوف ضميره. يهرب فوق الماء. وتركض ليليان نحو أبيها. إنه يصلي. أمها تصلي أيضاً. تصرخ: الرصاص يقترب. لنهرب.

لا يتحركان. يغرقان في الصلاة. وتصرخ مرة ثانية: بعد قليل يفجّرون البيت. لنهرب الآن قلت لكم أن نهرب أمس. لا أحد يسمع. لننتظر إلى الغد. هذا هو الغد. هذا هو الغد. ماذا نفعل؟

لا يتحركان. يغرقان في الصلاة. تركض نحو الباب. ستهرب وحدها، ودونما صلاة. هل قتل سهيل؟ وتتراجع مستلقية على الأرض. قنبلة تهدم جدار البيت الأمامي. الحجارة تتساقط. وجهها ملتصق بالأرض. تنتظر أن يتساقط السقف عليها.. يغمرها. هدوء. لا يغمرها. تظل مستلقية. لماذا لم يهربوا أمس؟ لماذا؟ وتسمع وقع خطوات حذرة فتلتفت. جنديان من الأعداء عند الباب. في يد كل منهما رشاش. أحدهما يصوّبه نحوها. الآخر يبحث عن حياة يسلبها وجودها. عينا الجندي تحدقان فيها. فوهة الرشاش أيضاً. تظل ملتصقة بالأرض. يقترب منها. تنهض. يقترب تصرخ برعب. تركض. يقترب الجندي الآخر أيضاً. تحاول الفرار. إلى أين يمسك أحدهما بيدها اليمنى ويمسك الآخر باليسرى: هذه لي.

ـ لا، لي أنا.

ـ قلت إنها لي.

ـ أنا رأيتها قبلك.

ـ أنا رميت القنبلة.

ويسمعان صوتاً نسائياً يصرخ بحدة: اتركوها،

ـ اتركها.

ـ اتركها أنت.

يضحكان. يحدق أحدهما ببطن الأم المتورم فيسأل ساخراً: حبلى. آه؟ متى يولد المحروس؟

ـ أسكت أيها الوقح. ليسقط غضب الله عليك. يضحكان. يقول الواحد منهم للآخر: وقح.

ـ أنت وقح.

ـ أنت حمار.

ـ أنت بغل.

ـ ليسقط غضب الله عليك.

يضحكان، فقد استطاع الأخير أن يقلد صوتها. تخاف ليليان على أمها. ترى الشر في عيونهما. يتوقف أحدهما عن الضحك فجأة. فكرة. ويهز كتف رفيقه: احزر، صبي أم بنت.

ـ كيف أحزر؟

ـ نتراهن. أنا أقول بنت.

ـ أنا أقول صبي أو بنت.

ـ بلا مزاح.

ـ وكيف نعرف؟

أنت أسكت. أنا أقول بنت. مفهوم؟ إذا حزرت آخذها أنا.

وأشار إلى ليليان. اقترب من الأم فحاولت الهرب، ولكنه أمسك بيدها: وإلا تأخذها أنت.

ـ لنفرض أنه صبي وبنت.

ـ نأخذها معاً.

وضحكا. وضع يده تحت قميصه واقترب من المرأة المذهولة. تراجعت، ولكنه لحق بها قبل أن تغيب وراء الباب. تمسك بشعرها وشدها إلى وسط الغرفة. ليليان لا تستطيع الصراخ. الجندي الآخر يحاول أن يفهم ما يريد رفيقه. يحدق مبتسماً. يعيد يده إلى تحت قميصه. ويغرز خنجره بسرعة. دون تردّد. صراخ حاد ارتفع من جانب الغرفة. إلتَوت الأم على نفسها وتكوّمت ليليان على الأرض. الأم تتخبط. يعيد طعنها. الأب ما زال يصلي. تنتفض مرة أخيرة. يبحث عن الجنين.

الجندي الآخر يقترب بذهول.. يقترب. يضع فوهة الرشاش في رأس رفيقه. يشد على الزناد. الرصاص يمزق رأسه. أصابعه تظل تشد على الزناد. يخرج هائماً على وجهه. العالم صرصار ذاهل.

* * *

صراخ وشتائم وعويل. النساء والأطفال والشيوخ يزدحمون على أبواب السيارات. معاونو السائقين يقفون في الأبواب لا يسمحون لأحد بالدخول قبل أن يدفع خمس ليرات. قبل ذاك كان الراكب يدفع ليرة. ويقذف أحد المجاهدين نفسه إلى الداخل: تأخذ من الراكب ربع ليرة، سمعت؟

ـ بأي حق تكلمني؟ أنا حر.

ـ أنت كر. تأخذ ربع ليرة فقط.

ـ لا يخصك.

ـ قلت تأخذ ربع ليرة. حقير. استغلالي. كلب. بعوضة.

ـ لا أسمح لك.

ـ لا تسمح لي، يا بعوضة.

ويطلق الرصاص في رأس المعاون. يجره إلى الخارج. ويتدفق الناس إلى الداخل.

* * *

استفاقت ناهدة مذهولة كالآخرين. أمها تصرخ أن يستعدّوا. الرصاص يدوّي عن قرب. الحرّاس يصرخون في غرفة الاستقبال. تسأل أمها عما يحدث. تجيب بسرعة واقتضاب «الأعداء في قلب البلد» وتخرج تصغي لحوار أمها مع أحد الحراس: وصلت أي نجدة؟

ـ بعد.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري.

ـ مستعدون؟

ـ لا أعتقد. كنا ننتظر أن تقع المعركة غداً.

ـ وعبد الجليل؟

ـ حقير هرب بالفلوس. خدعنا جميعاً.

الرصاص ينطلق من رشاشات مبجوحة. وتعود أمها تصرخ: يللا بسرعة، يللا.

ـ إلى أين؟

ـ أسرعي فقط. أسرعي. السيارة تنتظرنا.

وترتدي ثيابها بسرعة. تُرى، قتل سهيل، حقيقة؟ لا تستطيع أن تتصور أنه لم يعد موجوداً. لم يعد يبتسم ويتكلم ويداعب أصابعها: لا شيء في العالم يمكن أن يغير شعوري نحوك. لا شيء أبداً.

ـ وأنا أيضاً.

وجالت الدموع في عينيها. لم يفكر بالموت عندما قال هذا. هي أيضاً لم تفكر. لن تموت كي لا يتغير شعورها نحوه. ستحلم به دائماً آتياً مع الريح. تعود أمها تصرخ: يالله بسرعة، يالله.

تمسح عينيها وتخرج. الحرّاس عند الأبواب. يحملون بنادقهم. تعطيها أمها حقيبة صغيرة تحملها معها إلى السيارة التي تنتظرهم. وتهبط السلم إلى أسفل. ما زالت العتمة تملأ زوايا الشارع. الناس يتراكضون. أطفال، نساء، شيوخ، يهربون من الموت. لماذا؟ إلى أين تهرب هي؟ سهيل، قل لي ما أفعل. تراك لم تعد موجوداً حقاً؟ طفل يضحك. الرصاص يقترب. تتبعها أمها. تراقب وجهها المضطرب. صراخ يختلط بالعويل. تتطلع إلى الأوتوبيس. معاون السائق يحاول أن ينزل شاباً. إنزل يا أخي، لا تسبّب لنا مشاكل مع المجاهدين. يطلقون النار علينا. لا نستطيع أن ننقل غير الأطفال والنساء والشيوخ. امرأة أنت؟

ـ أنا مسؤول. ادفع مئة ليرة.

ويمشي السائق. الرصاص يقترب. انفجار. بيت يتكوم على نفسه. الغبار يملأ الفجر. تصرخ أمها فجأة: اطلعي، اطلعي. ما بك مثل العمود؟

ـ ما بي؟ ما بي؟ لا أريد أن أطلع.

ـ اطلعي بسرعة.

ـ قلت لا أريد.

ـ بلا ثرثرة. اطلعي بسرعة.

ـ قلت لن أطلع.

ـ اسكتي.

ـ لن أسكت

ـ مجنونة أنت؟

ـ سأبقى هنا. من حقي أن أبقى هنا. هذه حياتي. حياتي. حياتي. سمعتِ؟ اذهبي أنت. انتبهي لنفسك من الزكام. إلبسي كنزة الصوف. اشربي الشاي. لفي شال الصوف على معدتك دائماً، سمعت؟ سمعت؟

وراحت تركض في الشارع. لحقها أحد الحراس فصرخت به: أرجوك، اتركني.

ـ إلى أين؟

ـ إلى المعركة.

ـ ماذا تفعلين؟

ـ لا أدري. كما فعل أبي. أستطيع أن أساعد. هناك جرحى، أليس كذلك؟

لا يدري ما يقول. وعادت تركض. تودّ لو أنه أعادها غصباً عنها. تنعطف نحو الشارع الجنوبي. الرصاص يلعلع. أصداء تتجاوب. انفجار. توقفت. إلى أين؟ ماذا تفعل؟ تموت فقط.

لماذا؟ لتعد. لم تطلع للسيارة لأنها أرادت أن تتحدى أمها، لأنها احتقرت ذلك الشاب الذي هرب في السيارة. لم يستطع أن يتمرد على غريزته. يستمر دون أن يدري لماذا. تحاول أن تتمرد. هذا كل شيء. دون أن تدري لماذا. تراها دون كيشوت؟ جمدت في مكانها. ما هذا التحدي الدون كيشوتي؟ أن تنتهي لمجرد أنها تريد أن تتحدى. ولكنها ظلت تتقدم نحو الرصاص. تساعد الجرحى. بماذا؟ لا تدري. كيف؟ لا تدري. لماذا؟ لا تدري. إنها تركض فقط. تركض. تتوقف. فريق من الأعداء يتقدمون في وسط الشارع. تتراجع. تقف في ظل الحائط.. تتراكض عائدة. لماذا تقذف نفسها إلى الموت دون جدوى؟ لماذا لا تعيش فتظل تحلم بسهيل في غمرة عالمها المرير، وتسمع صوته، تحس بدفء ابتسامته وعاصفة أصابعه؟ غداً يأتي مع الريح. ألم يقل لها أن شيئاً في العالم لا يمكن أن يغيّر شعوره؟ ستحبه إلى الأبد. ألا يستحق الحب أن تعيش من أجله؟

وتركض عائدة. أصوات الناس تتمزق في صدرها. الزمن يخطفها خطفاً سريعاً. ماذا تقول عن العالم حولها؟ لا تدري. تعبر الهول فجائياً، والرعب والحب فلا تدري بما تفكر. الأطفال يبكون، والنساء يهربن من الموت، يتمسكن بأحذية العابرين غداً. بماذا تتعلق غداً؟ بماذا تفكر؟ لا تدري. الزمن يخطفها خطفاً. الصخب يعانق الموت في الشارع. بماذا تتعلق؟ لماذا لا تصلي للبعل؟ أيها البعل، املأ كأسي بالبحر. تتراكض.. تتراكض. وتقف السيارة قربها. تصعد إليها فينغلق الباب بقوة.

* * *

همدت دير البحر. لم يبق غير الحي الغربي يواجه الموت.

عويل النساء والأطفال يأتي من صوب البحر مع أنين الموج. أشار لهم فريد أن يتمترسوا. عرف ما يريد فشعر براحة غريبة تملأ صدره. قبل برهة كان يتمزق كأسد في قفص. اللحوم تُقدم إليه. لا يريد. جف الدم فيها. يريد أن يفترس، أن يمزّق ويشلّع. لم يعد من أمل في إنقاذ دير البحر. لم يعد من أمل بإيقاف جيش الأعداء الجرادي. رغم ذلك لن ينسحبوا. لا شيء سوى أن يثبتوا وجودهم. شيء آخر. أن يؤخروا الزحف ريثما يهرب الأطفال والنساء. المجاهدون العشرة حوله عرفوا أيضاً ما يريدون. سيصمدون هنا إلى آخر لحظة، ريثما يخترقهم الموت. وانتفض في مكانه. صوّب بندقيته نحو ثلاثة من جنود الأعداء يتراكضون في الشارع وأطلق الرصاص فجندل اثنين أما الثالث فاختفى وراء زاوية. لم يكن ينتظر أن تنهار دير البحر بهذه السرعة. كل ما قاموا به من استعدادات يتلاشى بأقل من نصف ساعة. أين الخطب والتدريب؟ شيء مذهل. الصمت يخيم تحت عاصفة من الرصاص. ويدوّي صوت انفجار فيتساقط جانب أحد البيوت أمامهم. ويكزّ على أسنانه دون أن يدري ما يفعل. يصغي للعويل يأتي مع أنين الموج. أحس بالوحدة. الموت يقترب كغيمة في الريح. الغيمة تنغزر في التراب. القمح لا يطلع. ويركض واحد من الأعداء في عرض الشارع، فيطلق الرصاص بحنق ويقع مثل خرقة. يتوقف السيل قليلاً. البنادق. تستعد بشغف. ويتدفق السيل فجأة فيخرق رصاصهم الريح. . تترامى أمامها وجوه الأعداء الزاحفة تحمل جوعها وحقدها وتاريخها العفن، المتصلب، النافخ بأبواق الجوع. أبواق حول السور تدور. الرؤوس أيضاً، والعيون تجحظ. . تتوثب. شرايينها الحمراء متكالبة. وتنصب النيران عليهم فجأة عن سطوح المنازل

أمامهم. يسقط سليم ويصاب هو بكتفه. يندفع نحوه فؤاد فيشير إلى المنزل المهدّم وراءهم. بعد ذاك لن ينسحبوا. هناك المقر الأخير. ينتظر هو وفيصل ونايف ريثما يتمترس الآخرون وراء جدران المنزل المتداعي فيحمونهم بغيمة من الرصاص. ويتراكضون. يتوقف فجأة. لقد وطأ وجهاً. حدَّق به. إنه فؤاد. يرتمي قربه. يئن. مازال حياً. ويمسح وجهه. يتأمله بذهول. مسح غبار حذائه العسكري عن وجهه مرة ثانية. آثار الحذاء لا تمحي عن الوجه الممتقع: آسف.

لا يجيبه. يحاول أن يرفعه. فيشير إليه أن يتركه. لا جدوى. يظل قربه. الدمع يزحف بحرارة إلى عينيه، يصعد من قلبه كرائحة البخور المحترق، يعبق بصدره. وينكفئ الرأس إلى الوراء. يسند رأسه إلى صدره. يسأل: اتركني احملك.

ـ لا.

ويتصاعد البخور المحترق إلى عينيه. يمسحهما فجأة. ليس الآن. يظهر أحد المهاجمين. تكوّم وراء جسد فؤاد الذي همد وشد على الزناد. حدَّق بالوجه الميت. آثار قدمه ما تزال محفورة هناك. واندفع منسحباً إلى المنزل المتداعي. السلم يتراكض وراءه. ويتمترس في الطابق الثاني قرب النافذة. مسح الغبار عن فمه وقال لرياض وفيصل: لن ننسحب من هنا. سنؤخر الزحف بقدر ما نستطيع. سنحدق بالموت إلى أن نعبر قلبه.

صمت. لا حركة. ووجد نفسه يحدق بقميصه. جحظت عيناه. قطعٌ من دماغ فؤاد تلتصق بقميصه. يغمض عينيه. يلصق رأسه بالحائط. لا يستطيع أن يمسحها عن صدره. لا يستطيع أن يتطلع إليها. ودوى انفجار قربهم فترامى الحائط الجنوبي. الركام يتساقط. أحس فريد أنه انفصل عن العالم فجأة. العالم بلا صوت. شيء

مرمي في قاع البحر. لا يسمع. الرصاص لم يعد يلعلع. شفاه رياض تتحرك. يبدو أنه يقول شيئاً. لا يسمع. ويتظاهر أن شيئاً لا يحدث. يشدّ على الزناد. لا يسمع طلقاته. عيناه تجحظان. الأعداء يتراكضون في الشارع. يقف. يصوّب الرشاش. يطلق النار بشراسة. لن يختبئ. يريد أن يراهم وجهاً لوجه. ويسقط بغتة. يحدق برياض الذي اجتذبه إلى تحت. شفتاه تتحركان. وأراد أن ينهض ثانية، ولكن صديقه ظل ممسكاً به. وصرخ بقوة فأحس أن صوته انفجر في أذنيه. عاد إليه سمعه فجأة. . عاد مضخَّماً. العالم طبول تقرع في رأسه بسرعة وتوتر. صوت رياض مدافع: ما بك؟ هل تسمع؟

ويضع رأسه بين يديه: اسكت. اسكت. صوتك يدوي في رأسي. اسكتوا العالم.

ـ ما بك؟

ـ اسكت.

وينهض. يطلق الرصاص بشراسة فيدوي في رأسه. يرمي الرشاش جانباً. يتمشى في الغرفة بسرعة وغضب. يتمشى. العالم يهدأ رويداً. . رويداً. يهدأ. العالم عاد إلى وقعه. واندفع نحو النافذة. الأعداء يتقدمون بسرعة غريبة. التفت إلى فيصل. فكر أن يقول له «لننسحبْ»، ولكنه اقتلع الكلمة من جذورها ورماها من نافذة وجوده. يبدو أنه لم يقتلعها تماماً. ما يزال يحسها تتشبث بتراب وجوده. كان الأحرى بهم أن ينسحبوا من قبل. كأن كلمة معركة تعبر وجوده لأول مرة. لأول مرة تتلاشى من أمامه الحروف الباردة فيحس أن المعركة عالم رهيب. أن يقرأ ويتحدث شيء آخر. أن يتدرب شيء آخر أيضاً.

ويدوي المنزل بانفجار هائل. الركام يغمره حتى صدره. رفيقاه غرقا. لا شيء يبدو منهما. أنفاسهما تتقطع الآن. لا فقاقيع تمتزج بالزبد. التراب يغمر عيونهما. وينتفض ثانية دون أن يتحرك. صرخ بألم. الحجارة تغمره حتى صدره. إنها تتحرك على ضلوعه. يداه لا تتحركان. يريد أن يصرخ. لا يستطيع رغم أن فمه فارغ من التراب. خطوات تتراكض على السلم. ينتظر بتوجع. ضوء الشمس ينبسط فوق الركام. يرى جندياً من الأعداء عند رأس السلم. يحدق في جوانب المنزل هو ورشاشه. يداه لا تتحركان. إنهما تحت الركام. يرى الموت يقترب. لا يستطيع أن يقاوم. فوهة الرشاش تحدق به. يقذف ناراً في وجهه. ويتهاوى رأسه على كتفه. لا حركة. الجندي يتقدم بحذر نحو فريد. يدفع رأسه بحذائه. ما زال يحتضر. يحاول أن يفتح عينيه. لا يستطيع. الحذاء يدفع رأسه ثانية. يصرخ. ينتفض. يهدأ. . يهدأ. ضوء الشمس ينبسط فوق الركام.

ـ 2 ـ

الساعة التاسعة ليلاً في اليوم السادس. وقف الضابط يراقبهما منتشياً. الحارس يأمر سهيل أن يحمل حجراً كبيراً إلى الجانب الآخر من ساحة السجن تحت الضوء الأغبر. ودون تردد يحمله إلى منتصف الساحة.. يرميه. ويحمله ثانية، يمشي، يترنح ويرميه تحت الضوء حيث أشار الحارس. يريح كفيه على خاصرته ويتنفس بحرية. لا يستطيع. قضبان صدره تضيق حوله. لم ينتظر أن يأمره الحارس بإعادة الحجر إلى مكانه الأول. لماذا نقله إذن؟ كي يتلذذ. كي يحطم كبرياءه. ودونما تردد ظاهر أعاده إلى وسط الحديقة، ثم إلى مكانه الأول في الزاوية المعتمة. جلس على الحجر ولكن الحارس صرخ به فنهض واقترب منه. كان قد انحنى والتقط معولاً صغيراً، فعرف الضابط أن الحارس يريده أن يحفر حفرة عميقة ليعود فيطمرها من جديد. صرخ: يكفي. يكفي.

ـ ولكنه لم يعترف.

ـ ألم أقل أن لا حاجة إلى اعترافه؟ انتهى كل شيء لماذا تعذبه؟

ـ لم أجد ما أفعل.

ضحك الضابط ضحكة عالية متقطعة، وأشار إلى سهيل أن يسير أمامه. لماذا لا حاجة إلى اعترافه؟ استسلمت دير البحر؟ وتسلقا

السلم إلى سطح السجن. لم يتساءل إلى أين يقوده الضابط. سرَّه أن يصعد إلى السطح، أن يرى العالم خارج السور المرتفع، أن يمد بصره ويضمّ العالم مرة ثانية بمحبة وفرح. السلم يلتف ويلتف. يريد هذه الدرجات أن تنتهي، فيرى الأشياء بسرعة. يريدها أن لا تنتهي، بل ترتفع وترتفع فيشرف على العالم من مكان عال.. يراقب جروحة العميقة في قلب الأرض. ووجد نفسه على السطح. لا يدري إلى أين يمد بصره في الظلمة. الضابط يتمسك بكتفه، ويشير إلى مكان بعيد، إلى الشمال: ترى النيران هناك؟

ـ اراها.

ـ تعرف ما هي؟ أقصد تعرف أين هي؟

شيء ما انخطف في صدره. الزبد يغمر العالم. هذه دير البحر. إنها تشتعل. النيران تمتد في خط طويل، تستدير عند الشاطئ وترتفع صوب القمة البيضاء. الدخان يرتفع باحمرار يسودّ.. يسودّ.. ثم يترمّد.. يترمّد.. لا يتلاشى. غيوم من الدخان يحملها الهواء البحري إلى القمة. لم يقل شيئاً. لا يستطيع. يحدق. الريح تهبّ من البحر، تدور على نفسها، تحمله. ترميه في واد صخري في ظل شوكة. عويل يتراكض مع أنين البحر.

ـ فهمت لماذا لم نعد بحاجة إلى اعترافك؟

ـ جلياد يُغدر مرة أخرى. غداً يصفقون للغدر.

ـ ماذا قلت؟

لم يجب. ظل يحدق بالنار والدخان. الضابط يقول ساخراً: بعد قليل تتحول إلى رماد.

ـ الرماد يُخصب الأرض.

ـ فنستغلها نحن.

ـ لوقت قصير. ولكنني كنت أتحدث عن شيء آخر.

يضحك الضابط. يتظاهر أنه فهم. البحر يقترب من العالم. لا صوت فوق هدير الموج. العتمة غيمة تترمد، تتضاءل، لا تتلاشى. الدخان يتصاعد.. يتحول إلى غيوم سوداء. الغيوم والرماد. الرماد يتحوّل إلى غيوم. التراب يبتهل للغيوم والرماد. شيء يتقلص في وجوده. ستة أيام بلا ضجر. ماذا يفعل غداً؟ الغيوم والرماد.

مؤلفات د. حليم بركات

روايـــة

- القمم الخضراء ـ 1956 .
- الصمت والمطر (مجموعة قصص) ـ 1958 .
- ستّة أيّام (طبعة أولى) ـ 1961 .
- عودة الطائر إلى البحر ـ 1969 .
- الرحيل بين السهم والوتر ـ 1979 .
- طائر الحوم ـ 1988 .

علم اجتماع

- النازحون : إقتلاع ونفي ـ 1968 .
- المجتمع العربي المعاصر ـ طبعة رابعة ـ 1991 .
- حرب الخليج : يوميات من جوف الآلة ـ 1992 .

حليم بركات

- ولد في سورية عام 1933، ونشأ في بيروت.
- حصل على الماجستير من الجامعة الأميركية في بيروت، ثمّ الدكتوراه من جامعة ميشيغان.
- عالم اجتماع ويدرّس حالياً في جامعة جورجتاون ـ واشنطن.
- له العديد من المؤلفات في الرواية وعلم الاجتماع.

يزحف! لا لن يزحف. سيظل يمشي بتحدّ. ماذا يقولون عندما ينحني ويزحف؟ خاف. مهمته كقائد أن يقنعهم بأنه شجاع.

وصلوا خمسة فقط إلى دير البحر. تسعة ماتوا. خالد أيضاً مات. أرسلوا المجاهدين للبحث عن الأجساد. خبّأوا الأسلحة القليلة التي تمكنوا من الهرب بها.

تسعة. تركهم وتجرجر نحو البيت. مذهول. الأزقّة مهجورة، وحيدة، صامتة وباردة. كل شيء حدث بانخطاف. لا يصدّق. تسلّق السلّم الصغير ودخل على مهل إلى غرفته. الجميع نيام. نزع حذاءه الضخم فتنهّد وهو يتلمّس المسامير النافرة من الداخل. مرّ بيده على قدمه اللزجة المدمّاة. بكى.




المركز الثقافي العربي

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت ـ لبنان

ص.ب 4006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب